

الصفاء والموادعة في رسائل الصاحب بن عباد

مي أحمد يوسف

قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة اليرموك - إربد

المستخلص . هذا البحث محاولة لكشف مظاهر « الصفاء والموادعة » في الرسائل الديوانية للصاحب بن عباد ، الذي كان وزيراً قوياً لأحد فروع الدولة البويهية في القرن الرابع الهجري ، واستمر وزيراً لها مدة ثمانية عشر عاماً ، استطاع خلالها أن ييسط الأمن والعدل والهدوء في الأمصار التي استعمل عليها .

وقد اتخذت مظاهر الصفاء والموادعة في هذه الرسائل أشكالاً شتى ، وتنوعت ، بتنوع الأحوال والمناسبات ، وتنوعت معها لهجته وأسلوبه : فمن لهجة عالية صاخبة إلى أخرى هادئة ساكنة ، ومن غصّب نلحظه عبر السطور ، إلى هدوء ينساب مع الكلمات . وعلو لهجته وسكونها يتلون أسلوبه ، ويتنوع سجعه كثرة وقلة ، وبساطة ، وتعقيدا . ولقد أشرنا إلى ذلك في ثنايا معالجتنا للموضوع في هذه الورقة .

وتبرز مظاهر الصفاء والموادعة في رسائل الصاحب هذه ، من خلال الأمور التالية :

١ - في ضبط أمور الدولة الداخلية .

٢ - في تعامله مع الثائرين والخارجين والمعارضين .

٣ - في تعامله مع الخليفة في بغداد .

تمهيد

عرف القرن الرابع الهجري شخصيات أدبية وسياسية مرموقة ، كان الصاحب إسماعيل بن عباد واحداً منها ، فهو - كما يُجمع عليه من أَلَفَ في شؤون هذا القرن - أحدُ أعظم كتاب النثر ، وربما الشعر فيه . وكان الصاحب - إلى جانب ذلك - سياسياً قديراً ، وإدارياً موفقاً ، وكان أيضاً قائدًا مظفرًا^(١) عمل مدة ثمانية عشر عاماً ونيّف في خدمة أحد فروع العائلة البويهية آنذاك^(٢) .

ولد الصاحب بن عباد عام ٣٢٦هـ في أصح الروايات^(٣) أما مكان ولادته فتتأرجح الأقوال فيه ، وتختلف باختلاف نسبته : فمن قائل : إنه طالقاني نسبة إلى طالقان^(٤) حيث أمضى فيها شطراً من طفولته ، ومن قائل : إنه أصفهاني نسبة إلى أصفهان^(٥) ، حيث بنى مسجداً جامعاً ، وحيث أودع رفاته في نهاية المطاف^(٦) .

نشأ الصاحب بن عباد^(٧) في عائلة ميسورة الحال^(٨) وفي كنف والده عباد ، الذي تقلد أسنى المناصب في ظل الدولة البويهية ، كان أهم هذه المناصب : توكّله الوزارة لركن الدولة البويهي^(٩) . كان عباد ذا علم غزير وخلق رفيع ، حتى لُقّب بالشيخ الأمين^(١٠) ويبدو أن عباداً توفي وابنه إسماعيل كان لا يزال صغيراً فتعهده صديقه أبو الفضل بن العميد ، الذي أصبح وزيراً لركن الدولة عام ٣٢٨هـ ومن ثمّ عينه كاتباً عنده ، وبعد ذلك رشحه لأن يكون كاتباً للأمير مؤيد الدولة ، ابن ركن الدولة ، الذي اختاره بدوره ليكون مرافقاً له حينما زار بغداد عام ٣٤٧هـ . ولما تولى مؤيد الدولة الإمارة ، وبعد أن تخلّص من وزيره أبي الفتح بن العميد^(١١) وكلي ابن عباد الوزارة له إلى أن توفي ، وبعد وفاة مؤيد الدولة ورز الصاحب لأخيه فخر الدولة^(١٢) وبقي في الوزارة حتى وفاته عام ٣٨٥هـ وكانت مدة وزارته في عهدي مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة ثمانية عشر عاماً .

درس الصاحب بن عباد على عدد من أدياء عصره وعلمائه ومحدثيه ، من هؤلاء :

- أبو الفضل بن العميد (ت ٣٦٠هـ) : أخذ عنه ابن عباد صناعة الكتابة ونقد الشعر ، وهو الذي هيأه ليكون كاتباً فيما بعد ، وصحب الصاحب بن عباد ابن العميد ، « فسُمّي الصاحب ومشى طريقه ... وكان يتحلّ طريقته ... ونشأ في نعمائه ، وكلاؤه بنظره ، وسرح بسمائه حتي تخلّق بخلائقه ، وعرف أكثر حقائقه ، وأشرقت عليه سماؤه ، وصدقت أسماؤه ، وقد حذا حذوه وجرى وراءه^(١٣) ومازال أبو الفضل بن العميد يرقّي الصاحب في دواوينه حتى اختاره وزيراً لمؤيد الدولة في أثناء إمارته على إصبهان في عهد أبيه ركن الدولة .

- أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) : كان إماماً في علوم شتى . ألّف كتاب

« المُجْمَل في اللغة » وألف كتاب « فقه وسنن العربية في كلامها » ، ولقبه بالصاحب ، بلقب تلميذه الصاحب ، وأهداه إليه ^(١٤) .

- أبو سعيد السيرافي ، الحسن بن عبد الله بن المزربان (ت ٣٦٨ هـ) الشهير بالنحو وعلوم القرآن واللغة والشعر والعروض والقوافي ، وقد قرأ عليه الصاحب صدرًا من تفسيره لكتاب سيبويه ^(١٥) .

- أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة (ت ٣٥٠ هـ) ، وكان من العلماء بعلوم القرآن والنحو والشعر ، وقد سمع الصاحب قدرًا صالحًا مما عنده ^(١٦) .

- أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب ، ابن مفسم العطار المقرئ (ت ٣٥٤ هـ) ، العالم بالقراءات ، والخبير بنحو الكوفيين ، وقد سمع الصاحب منه ^(١٧) .

- إضافة إلى أبيه عباد ، الذي أخذ عنه الصاحب الحديث وعلوم القرآن .

لقد ألم الصاحب بن عباد بكثير من ثقافات عصره وعلومه ، ويشهد له بذلك مكتبته الشهيرة بكثرة العدد وتنوع الموضوعات ، وقد مكنته مكتبته هذه من الكتابة في فنون شتى ، ومعارف متنوعة ، تنوعت تبعًا لآثاره ، فمنها : في علم الكلام ، ومنها في السياسة ، وقسم في الدين واللغة والمعاجم والعروض ، إضافة إلى التاريخ والنقد الأدبي ^(١٨) .

رسائل الصاحب بن عباد ^(١٩)

كتب الصاحب بن عباد رسائله في عهد وزارته لبني بويه ، وهو عهد كان أزهى عهود دولتهم ، وهي دولة ركن الدولة وأولاده : عضد الدولة ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة ^(٢٠) ولقد كان الصاحب - في وزارته لآل بويه - محط ثقة أمرائه ، الذين أطلقوا يده في كل شيء ^(٢١) وغدت كلمته هي النافذة دون غيرها . وكانت الرسائل تصدر بلسانهم عنه في الأمور الإدارية والقضائية والعسكرية أيضا . فكتب إلى ولائهم وكتب العهود في تعيين القضاة والحكام وسن القوانين ، وبعث ينذر الخارجين على الدولة ، وكتب للثائرين يحثهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، كل ذلك في حنكة رصينة ، ودراية مكيئة ، جعلت له منزلة عظيمة في دولته ، واحترامًا كبيرًا عند أوليائه ، حتى قيل إن قواد بني بويه وحكامهم ومن يوالونهم من الأمراء كانوا يقفون ببابه ، ومن يؤذن له في الدخول عليه يظن أنه بلغ الآمال ونال الفوز بالدنيا والآخرة ... ^(٢٢) .

وأما رسائل الصاحب هذه فهي في معظمها رسائل ديوانية ، لأن صاحبها - كما أسلفنا - كتبها في شؤون الدولة : الإدارية والتنظيمية والعسكرية ^(٢٣) من هنا ، كان لها قيمتان بارزتان :

قيمة تاريخية ، وأخرى أدبية^(٢٤) :

أما القيمة التاريخية ، فلأن الرسائل الديوانية في غالبيتها تظل منشوراً . . . نعرفنا بقضية سياسية أو حربية أو أخلاقية أو غير ذلك ، وهي وثيقة تدرس من خلالها ظواهر سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية^(٢٥) من هنا جاءت القيمة التاريخية لرسائل الصاحب ، إضافة إلى أنها :

- سجلت أسماء طائفة من حروب بني بويه مفصلة ، مع ذكر الأطراف المتحاربة ، وأسماء القواد ، وقد ورد فيها تفصيلات مما لم يرد ذكره في كتب التاريخ ، مثال ذلك : الرسالة السادسة في الباب الأول^(٢٦) .

- كما سجلت - هذه الرسائل - أسماء طائفة من حكام الدولة البويهية ، وقوادهم وقضاتهم ، وبخاصة في كتب العهود التي كتبها ابن عباد على لسانهم ، موجهة إلى من تم تعيينه من هؤلاء .

- يُضاف إلى ذلك أن هذه الرسائل عكست سياسة البويهيين وطرق تعاملهم مع الرعية كما عكست في بعضها مجتمع الناس في ذلك العصر .

ومع كل ما ذكر من قيم تاريخية للرسائل ، إلا أن ذلك كله لا يحجب بحال قيمتها الأدبية والفنية ، وبخاصة إذا تذكرنا أن معظم رسائله كان قد وضعها على لسان أميره ، وما دام الأمير يمثل القمة ، فالتعبير عنه يجب أن يكون في أسنى صور البلاغة ، دون أن يخضع هذا التعبير لمستويات مختلفة ، إلا أن تكون مستويات نفسية للشخصية الأولى^(٢٧) وإلى جانب ذلك ، فإن هناك أموراً تستمد رسائل الصاحب أهميتها الأدبية منها ، وهي :

- أنها تناولت موضوعات يصعب تطويعها للأساليب الأدبية ، وأموراً أخرى تحدها الحقائق ولا يتسع فيها الخيال ، ويصرّفها العقل ولا ينفسح فيها مجال العاطفة ؛ ذلك أن الصاحب كتب رسائله هذه في معان بعيدة كل البعد عما ألف الكتابة فيه من شؤون العقل والوجدان ، كل ذلك بأسلوب أدبي ، وهذا بحد ذاته برهان على أن الصاحب كان كاتباً قديراً استطاع أن يضع مسائل جافة لا تألف لغة السجع والتورية والجناس في لغة تفيض عذوبة ولينا . ونعني بتلك المسائل : سقي الأرض وبناء الجسور ، وموضوع الخراج والحسبة ، وأمن الطرق إلى غير ذلك من هذه المسائل .

- كما ترجع القيمة الأدبية لرسائل الصاحب إلى أنها تعين القارئ على التعرف إلى رسوم الكتابة الديوانية لتلك الفترة ، وبخاصة أن الصاحب كان أحد أعظم وزيريين أديبين للدولة

البويهية ، جمعا إلى رئاسة الدولة رئاسة الأدب ، وأما الآخر فهو أستاذه ابن العميد .

- يُضاف إلى ذلك ، أن القارئ يستطيع أن يتعرف - من خلال هذه الرسائل أيضا - على خصائص الصاحب الأسلوبية ، من حيث : الافتتاح والختام ، ومن حيث تعمده اختيار ألفاظ تغلب عليها حروف التفضيم والإطباق ، وكثرة الاعتراض والفواصل ، وفوق ذلك كله كلفه بالسجع والبديع ، الذي غدا عنده كالعادة التي لا يمكن لصاحبها التخلي عنها^(٢٨) .

الصفاء والموادعة في رسائل الصاحب بن عباد

لعلّ من نافلة القول أن نذكر ، أن الصاحب بن عباد ، الذي سطع نجمه في القرن الرابع الهجري ، ككاتب ، لم يأخذ حظّه من الإنصاف في الحكم عليه باعتباره سياسيا قديرا وإداريا نافذ الكلمة ، إذ غلبت شهرته ككاتب أديب على شهرته كسياسي مخضرم^(٢٩) كوّن لنفسه منهجاً في الحكم واضحاً ، كان مدعاةً لتمسك رؤسائه البويهيين به مدة ثمانية عشر عاماً متواصلة^(٣٠) وحتى عندما تكون شخصية الصاحب محور البحث والنقاش ، فإن هذا البحث لا يكاد يذكر أن ابن عباد كان يتمتع بسلطات واسعة في الدولة ، وأنه - إلى جانب كونه وزيرا - كان قائداً للجيش كثيراً ما حصد الانتصارات^(٣١) وكثيراً ما ملأ خزانة الدولة بالأموال ، وحكم الناس بالعدل ، ومكّن لأمرائه (البويهيين) السيطرة على بلاد مزدهرة آمنة ، تخلو من الاضطراب : كل ذلك بحنكة ودراية ، حتى عمّ الأمن والسلام ، وساد القانون ، وكان لهذا كله أن « عظم الصاحب في نظر بني بويه ، فهابوه ، وصانوا كرامته طوال حياته ، فلم يردّوا له أمراً ، ولم يُفسدوا عليه قولاً ، بل كانوا يسرعون إلى إنفاذ ما يُشير به^(٣٢) فيروي ياقوت أن الصاحب إذا قال في مسألة قولاً ، وقال فخر الدولة قولاً آخر ، امثل قول الصاحب^(٣٣) ومن يطلع على رسائل الصاحب يجد كثيراً مما ذكرنا ، بل إنه سيرى أن هذه الرسائل هي شاهد عيان على إدارته الحكيمة ، وكلمته النافذة ، هذا إذا أخرجها القارئ من دائرة الحكم المسبق ، الذي يركّز على أسلوب صاحبها في الكتابة ، الذي يتخذ من التسجيع والحلية البيانية سمة لازمة لا ينسلخ عنها في معظم الأحيان ، وهو الحكم الذي أفرز لهذه الرسائل مواقف متناقضين ، لطائفتين من الناس : طائفة كانت تُعجّب بأسلوبه وتطريه^(٣٤) وأخرى كانت تُمجّه وتزدرّيه ، وعلى رأس الثانية أبو حيان التوحيدي^(٣٥) الذي أضلّه حكمه الجائر على الصاحب ، وبغضه له^(٣٦) عن فهم ما ترمي إليه هذه الرسائل ، وما فيها من خطوط واضحة لسياسة حكيمة ، لا تصدر إلا عن إنسان ضليع خبير . ولا عجب أن يكون ابن عباد كذلك : فقد كان والده وزيراً - كما مر - ونشأ الصاحب - كما يقول الخوارزمي - « من الوزارة في حجرها ، ودبّ ودرج من وكرها ، ورضع أفويق درّها ، وورثها عن أبيه »^(٣٧) فكان خير من يقوم بهذا الإرث : عدلاً ورفقاً ورفعاً

للمحقق. وقد تحقق له ذلك بنهجه السياسي الخاص القائم على (الصفاء والمواذعة)، وهو نهج كان يحكم سلوكه الإداري والسياسي والاجتماعي أيضاً^(٣٨) كما كان يحكم لهجته في رسائله الديوانية، وهو موضوعنا الذي سنعالجه في هذه الورقة.

مظاهر الصفاء والمواذعة في رسائل صاحب بن عباد

اتخذت مظاهر «الصفاء والمواذعة» في رسائل صاحب بن عباد أشكالاً شتى، وتنوعت بتنوع الأحوال والمناسبات، ومع هذا التنوع، وذلك التشكل، فإنها كانت تتجه جميعاً إلى غاية واحدة، هي: إحقاق الحق والعدل، ونبذ الظلم والجور، وإشاعة الأمن والطمأنينة، فقد كان رجل دولة، لذلك كان في رسائله هذه، «وفي كل ما يصدر عنه أميناً على الدولة، وفيما لأصحابها، لا يعمل إلا ما يرى فيه صلاحاً لأحوالها، وانتظاماً لأمرها، وكان في الوقت نفسه يرعى حق ربّه ويرضى ضميره، لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يبيع دنياه بأخرته، وكان رقيقاً بالناس يتحاشى ظلمهم^(٣٩) ويعف عن أموالهم^(٤٠)».

قلنا: تنوعت مظاهر الصفاء والمواذعة في رسائل صاحب بن عباد، ونقول: وتنوعت معها لهجته وأسلوبه: فمن لهجة عالية صاخبة، إلى أخرى هادئة ساكنة، ومن غضب نلحظه عبر السطور، إلى هدوء ينساب مع الكلمات، وبعلو لهجته وسكونها يتلون أسلوبه، ويتنوع سجعته كثرة وقلة، بساطة وتعقيداً، وسنشير إلى ذلك في ثنايا معالجتنا للموضوع في هذه الورقة.

وتبرز مظاهر «الصفاء والمواذعة» في رسائل صاحب بن عباد من خلال الأمور التالية:

- ١- ضبط أمور الدولة الداخلية.
- ٢- تعامله مع الثائرين والخارجين والمعارضين.
- ٣- تعامله مع الخليفة في بغداد.

أولاً: ضبط أمور الدولة الداخلية

أشرنا - فيما مر، وكما تخبرنا رسائله - إلى أن صاحب بن عباد كان سياسياً حكيماً، وإدارياً نافذ الكلمة، واستطاع بحكمته، وتأييد مخدميه له، وثقتهم به وعدله أن يفرض سيطرته على أنحاء دولة مؤيد الدولة، ومن ثم فخر الدولة، ووقفه إلى ذلك سياسة المواذعة، التي اعتمدها خطأ واضحاً في حكمه، من ذلك:

- ١- إسقاط مال الإرصاء^(٤١): وقد كتب في ذلك رسالة عند الفتح الأكبر بجرجان^(٤٢) الواقع بين الخراسانية، كنوع من الاسترضاء بعد القضاء على الفتن، وبعث بها إلى الأمصار

ليعمَّ عدلٌ ما أمضاه الأرجاء ، وينعم به الناس .

وفي هذه الرسالة يبلغ الصاحبُ قِمةَ العدل في رفع ظلم الإِرصاد عن الرعية ، شكرًا لله على نصره في جرجان ، إذُ

« ليس الشكر بمقصود على اللسان دون العقد ، ولا على القول دون الفعل ، بل الواجب أن تتكافأ فيه نتائج الألسنة وضمائر القلوب ، وتوصل له مواقف الثناء بالتقرب المقبول ، ويجعل من إمارات المعرفة بحق ما سوَّغ الله فرهن ... تقديم الأعظم فالأعظم مصلحة بين الناس ... ليشمل الجمهور عائدة ما يُتوخى ويُقصد ، وينظم التابع والمتبوع بركة ما يتحرى ويُعتمد ، ومن عند الله التوفيق ... والله أسأل أن يرشدنا لمصالح الأعمال ومناجح الأفعال ، ويثبت عزائمنا في الخير نصل مرآته بعراه ، والعدل بنسبته فيمن نسوسه ونرعاه إنه رؤوف رحيم »^(٤٣) « وحين رأونا في القرب التي رأينا تجديدها ، والزلف التي نذرنا تمهيدها ، وجدنا من أولاهنا بالاهتمام ، وأحرارها في الأحكام إزالة رسوم الإِرصاد بأصهان : قديمها وحديثها ، عتيقها وجديدها ، أصولها وفروعها ، كثيرها وقليلها ، والإعفاء عما يجري في حقوق البذرة والمكس فيها ، وما يلحق من التوابع والمؤن به ؛ إذ كان شيئاً لم نأذن في ابتدائه ، ولم تُرخص في إنشائه ، وإنما تهوكت^(٤٤) فيه جماعة أذاقها الله وبالها ، وأساء عاقبتها ومآلها ... وقد استقطناه ، مريدن وجه الله بما أتينا ، لا يثنينا عنه كثرة قدره ، والعُرجة على نفعه أو ضره إسقاطا يستمر على التأيد »^(٤٥).

الصفاء والموادعة في هذا الخطاب يظهران بوضوح في أمور كثيرة ، فصلها الصاحب ، نجملها فيما يلي :

أ - شمول الإسقاط لكل أنواع التعامل التجاري مفصلاً ، لا يُستثنى منه شيء دون آخر

« عالمين بأن نفع ما يحيط من هذه الأحوال يشمل ذوي البضائع في بضائعهم ، وأولي التجارة في تجارتهم ، وأرباب البياعات في بيعاتهم ، وأصحاب الضياع والزراعات في غلاتهم ، ثم لا يقتصر على ذلك الصنع^(٤٦) وقطانه ، ولا يتفرد بجدواه من يحلّه من سكانه ؛ حتى يتخطى إلى كافة المجهزين إليه من البلاد الدانية والقاصية ، والكور المجاورة والمتراخية في شرق الأرض وغربها ، وبرّها وبحرّها ، ويدعو إلى زيادة ما ينقل ويمتار ، ويرد به المجهزون والتجار ، فيعظم النفع ويزداد الرخص وتشمل البركة ويؤمن البخش ».

ب - التعميم الشامل بدءاً به ، وانتهاءً بالتجار جميعاً

« وأوعزنا فوُضِع بحضرتنا عن الدواوين ؛ حتى لا يبقى اسم ، ولا يُجبي منه رسم ، وأذنا في إقامة النداء بحذفه في أسواق إصبهان ، ومجامعها ، وأبواب خاناتها ، ومسجد جامعها ، والتقدم إلى التجار بذكره في كتبهم إلى معاملهم وخطائهم ومضاربيهم وشركائهم ، لا طلباً منهم للسمعة ولا مراة بالقربية ، بل ليعلموا أن الذي يوردونه ويصدرونه محروس عن التحيف ، محوط عن التخوف ، ويشقوا بأن أموالهم تصل إليهم في ضمان التوفر ، وبضائعهم ترجع عليهم بالزيادة والتثمر ، فيكثروا شكرهم لله رب العالمين ، ويشركوا لنا بين الدعاء والتأمين »^(٤٧).

ج - الأمرُ بإنفاذ أمره والامتنال بما ورد فيه ، والضرب على أيد المتكسبين به ظلماً

« ... فاعمل - أدام الله تأييدك - بما رسمناه ، فقد ختمناه ، وامتثل ما حددناه ، فقد جزمناه ، وقدمه ، فقد تقدمنا بإمادة هذا المال من تلك المعاملات ، وحطه عن التقارير والتوظيفات ، واصرف عن المراكز هؤلاء العشارين الذين عادتهم الظلم ، ومكاسبهم الإثم ، وطعمتهم السُّخْت ، وتقدم بهم مراكزهم وإبارة مراتبهم ومراقبهم ، ليجتاز المجتاز بما يصدر ويورد ، ويحمل ويقل ، وليس عليه رُقبة^(٤٨) من معارض ولا مستوقف ، ولا نقبة من مطالب ولا مستخرج^(٤٩) .

د - إعطاء حافظي النظام رواتب من بيت المال ، وليس من مال الإرصاء بعد إلغائه

« وما احتيج إليه لحافظي دروب البلد من جار^(٥٠) فأطلقه من بيت المال لئلا يبقى أثر لما حُظر يتوصل بقليله إلى الكثير ، ويتوسل بصغيره إلى الكثير »

هـ - الإعادة والتكرير على ضرورة إنفاذ هذا الأمر إلى كل الجهات والأوصار .

يلاحظ ، عند قراءة خطاب صاحب بإسقاط مال الإرصاء أمور ، يتطلب المقام ذكرها :

١ - مقدمة صاحب في هذا الخطاب لم تكن طويلة ، وهذه كانت عاداته في رسائله في مثل هذه الموضوعات ، وهذه المقدمة تنوِّفُ على إشارة إلى الموضوع الذي سيذكره تالياً : فتراه قد مهد إليه ، سبياً على القواعد التي اختطها كُتَّابُ الدواوين لمثل هذه الأمور^(٥١) .

٢ - ظهر في هذا الخطاب التوازن والترادف ، إلى جانب أنواع من السجع ، وهو أمر لم يكن بمقدور صاحب الانسلاخ عنه بعد أن غدا عنده عادة وتقليداً ، وإن كان فيه شيء من الاعتدال هنا ، فهو بما فرضته عليه طبيعة الموقف وخطورته ، وهذا يحتاج منه إلى تنازل - ولو قليلاً - عما ألفه من التزام تام بالسجع ، والتصاق عام بالتزوين^(٥٢) .

٣ - يلاحظ أن هناك نغمة هادئة ترينُ على السطور ، تنم عن رضى نفسي بما حققه من نصر في جرجان ، وسرور غامر بما أنفذه من أمر رفع فيه الظلم عن الرعية ، وهو أقصى آمانياته ، وأسمى مرامييه في عمله كوزير . وكأنني بهدوء نفسه قد أسقطه على أسلوبه ، فانساباً هادئاً ، وتمازجاً معاً بتناغم رفيع ، وشآه بسجع منمق ، وتحسين بديعي ، أضفياً على النص سمواً ورفعة ، إضافة إلى سمو ورفعة القرار فيه .

٤ - لا يخفى - كذلك - أن صاحب قد مال إلى بسط الكلام في مواقع عدة من الخطاب شكراً لله على توفيقه ، وعرفاناً بفضلله ومنه الذي تفضل به عليهم بنصرهم على منائهم بجرجان .

يدخل في هذا الإطار - أيضاً - موادة أخرى ، تظهر في خطاب آخر ، وجهه صاحب

على لسان مؤيد الدولة إلى أهل (قصة الدينور)^(٥٣) يأمر فيه بترك الأموال الناتجة عن الخراج من (قصة الدينور) لأهلها ، وأن لا يزداد عليهم خراج ومكوس . وهو خطاب قصير ، يتجلى فيه وضوح الأسلوب ، مع اعتناق من السجع ، وهذا الخطاب عهداً أمان^(٥٤) وعهود الأمان عند الصاحب تسيير على نفس الشاكلة : من الوضوح والإيجاز ، والتخفيف من السجع والاعتناق من التعقيد ، خدمة للقصد ، وفهما للغرض ، بل إنه أميل في هذه العهود إلى الترسل^(٥٥) منها إلى التسجيع والتزيين البديعي . يقول الصاحب في هذا العهد :

« هذا كتاب من مؤيد الدولة لأهل قصة الدينور : إن لما عرفناه من حالكم وعمثلنا من اختلالكم ، وتصورنا من كثرة عدوكم واشتراك عالم من الضعفاء وأهل المسكنة في مؤدى خراجكم رسمنا تعهدكم بالصيانة والحراسة والحماية وإحياء وإجراءكم في الخراج المقسوم بينكم على أعدل السنن ، وأخف القوانين ، لا زيادة تلحقكم ، ولا مؤونة تلزمكم ، ولا كلفة تتوجه إليكم ، ولا مرفق ولا نائبة عليكم ، ولا تتبع ما تناصفتكم بينكم . . . وحظرنا أن يزداد عليكم في الإتيان بطروق من يطرُق من الخيول . . . وتقدمنا بتعفية ما كان عمال السوء ، وولاة الجيش يأتون مداخلة في هذه المعاملة ، يتوصلون بها إلى ارتشاء منكم ، واتفاق من جهتكم »^(٥٦).

٢- تنظيم صرف الميساء : وتتضمنه الرسالة الثامنة من الباب الثاني - وهو في العهود - يقول فيها^(٥٧) :

« رسمنا لك أن تباشر ذلك باتقاء الله تعالى ، ومراقبته ، فإنهما يزجران عن احتقَاب المآثم ، والإسفاف خبثة المطاعم ، وتعديل الحال بين أهل الرساتيق والضياع ، حتي يستوفي كل حظه في وقته المعلوم ، ويستوعب قسطه في شربه المقسوم ، وتقصر دون الخيف الأيدي الغالبة ، وتُحسم عن الظلم الأطماع الكاذبة ، ويكون الناس في حقوقهم أمثالا لا يتفاضلون ، وعلي السواء لا يتفاوتون ، ويجري الأمر في المقاسم والفرض والسدود والرشانات^(٥٨) على ما توجبه الدستورات القديمة ، والمثبت العتيقة ، والرسوم المعهودة ، والسنن الموروثة ، وتقع الاستعانة بالجوبدين^(٥٩) الثقات ، الذين لا يوظفون العشوة ، ولا يقبلون الرشوة^(٦٠) وإن اجتراً أحد من الأكره والمزارعين والحماة والمتولين إلى اقتطاع ماء إلى غير حقه ، أو سكره^(٦١) إلى أرضه في غير شربه ، عوقب عقاباً رادعاً ، وقوم نكالا وازعاً ، ولم يُبقَ عليه ، وإن كانت الضيعة من خاص ضياعنا وخالص أملاكنا »^(٦٢).

أما ترى طواعية اللغة للصاحب في التعامل مع هذا الموضوع الجاف؟ وكيف انسابت مفرداته طيبة لقلمه ، وكيف انسجمت عباراته متسقة مع غرضه؟

لقد برهن الصاحب في رسائله - ومنها هذه الرسالة - أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة تفيض بالعدوذة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس^(٦٣) وقدرة الصاحب تتجلى هنا في الكتابة في معان لم تؤلف الكتابة فيها من شؤون الدولة والإدارة ، وهي هنا في موضوع الري وتنظيم توزيع المياه وما يتعلق بذلك من إجراءات ، ومعالجته لهذا الموضوع في هذا الخطاب تكشف عن

درايته بهذه الأمور ، وعن تمرُّس الحاذق المحترف ، الذي اكتملت لديه أدوات الكتابة والرياسة ؛ إذ مَنْ لم يكن عالماً بإجراء المياه وبحفر فُرُص الماء والمسارب ، وردم المهاوي ومجاري الأنهار في الزيادة والنقصان واستهلاك القمر وأفعاله ووزن الموازين وذرع المثلث ... كان ناقصاً في حال كتابته^(٦٤).

الصفاء والموادعة في هذا الخطاب يظهران بجلاء في : تنظيم أمر المياه ، وفي توزيعه بالعدل والقسطاس ، حتى « يستوفي كلُّ حظه في وقته المعلوم ، ويستوعب قسطه في شربه المقسوم ، وتقصر دون الحيف الأيدي الغالبة ، وتحسم عن الظلم الأطماع الكاذبة »^(٦٥).

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهما يتبديان - كذلك - من خلال أسلوب صاحب الهادى الرصين ، الواضح ، وإن كان فيه شىء من السجع ، فهو سجع لا تمجج الأذواق ؛ فقد طوَّعه الكاتب هنا ؛ ليسير منسجماً مع معانيه وأغراضه ، وليتضح لقارئ هذا الخطاب ، القصد من ورائه : ألا تراه وقد انسأب لينا في الأحوال كلها : الإرشاد والأمر ، والإنفاذ ، بل وفي التهديد أيضاً ؟

٣- ضبط الحسبة^(٦٦) : ويتضمنه الخطاب الثاني ، من الباب الثاني في العهود ، فقد ورد فيه :

« هذا كتاب من مؤيد الدولة ، أبي منصور بن ركن الدولة أبي علي ، مولى أمير المؤمنين لفلان : إن لما أنهي إلينا ، وتناهى في الوضوح لدينا ، من علمك المشهود ، وسترك المحمود ، وموقفك في أعيان الفقهاء ، وموضعك من الاضطلاع والغناء ، رأينا اعتمادك لما صدق به اهتمام الأئمة ، ومُسَّت إليه حاجة الأمة من الحسبة ، التي تنظم مصلحة الكافة ، وتجمع مرارة الحق إلى حلوة الرأفة ، ففوضناها بالري وأعمالها إليك ، ناظرين للرعية ، والطالبين فيها وجه المزية ، إذ الاحتسابُ يشتملُ على الأمر بالمعروف ، والزجر^(٦٧) عن المنكر ، والتواصي بالمحامد ، والتناهي عن المفاسد ، والله ولي إرشادنا وتأييدنا ، وإسعادنا وتسديدنا ، نعم الوكيل ، وعليه التعويل »^(٦٨).

هذه هي مقدمة العهد^(٦٩) وقد بسط فيها صاحب الكلام بسطاً ؛ حرصاً منه على توضيح الغرض ، ألا وهو : تقليد محتسب وظيفة الحسبة ، مذكراً إياه مخافة الله ، وتقواه في عمله ، فهي العدة والعصرة ، والنجدة التي فيها النصرة .

وقد عمد صاحب في هذه المقدمة ، إلى ذكر حال المقلد ، وقدر النعمة التي آلت إليه ، والدعاء له بالتوفيق ، وقد تأنق فيها صاحب ، وبخاصة في المزوجة بين الجمل ، والتنسيق بين السجع ؛ إذ لا يحسن منشور الكلام ، ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً^(٧٠) كما يقول أهل العصر . ولقد أضاف صاحب إلى ذلك كله خفة لفظه وعذوبة موسيقاه فهو في لفظه أكثر صفاء وأكثر تنغيماً من معاصريه من كتاب الدواوين^(٧١) ، يضاف إلى ذلك ، رنة الصفاء والموادعة التي تطفو

على سطح السطور لتعلن عذوبة روحه مضافة إلى عذوبة لفظه ، فقلد هذا المحتسب أمر الحسبة « لما صدق به اهتمام الأئمة ، ومست إليه حاجة الأمة من الحسبة التي تنظم مصلحة الكافة ، وتجمع مرارة الحق إلى حلاوة الرأفة » .

وأما الصفاء والموادعة في هذا العهد فيتبديان من خلال تفصيل الصاحب للمحتسب الجديد ، الأعمال التي عليه القيام بها لضبط الأمور ، ورفع الجور ، ومعاقبة المذنب ، وهذه أمور يغني منها الصاحب موادعة الرعية والتخفيف عنها مما يثقل كاهلها ، وينغص عيشها ، وهذا كله يظهر فيما يلي^(٧٢) :

- الكف عن المنكرات وتقويم أهل الفسوق .

- الاهتمام بأمر المعايير والمكايل : « اهتماماً يقتضيه افتقار المعاملات أجمع إليها ، ورجوع المبايعات عليها » .

- المنع عن المجاهرة بما يحظر ، والمبادرة بما يُنكر دون تمييز أو تفريق بين فقير أو غني ، غير مفرق بين أبناء الثروة واليسار ، وإخوان الخلّة والإعسار ، فالجماعة عبيد الله ، لا تختلف فيهم حدود الله ، بل الاغنياء - إلا مَنْ عصمه الله - أجرأ على المناكير ، وأقدر على بلوغ اللذات بالتبذير . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

- إلزام النساء أن يضربن بخمرهن على جيوبهن إذا تخللن الأسواق ؛ فذلك أدفع للمحبة الفاسق ونظراته ، وأسلم للعبد الصالح وعفته .

- مقاومة الغش في السلع ، « ومن صح إصراره على استعمالها وإقدامه على وبالها . فبالغ في تقويمه بصر مثله لمن سواه ، وعبرة لمن يجري مجراه ، إن الله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

- منع سد الشوارع دون السابلة بامتعة الباعة وآلاتها ؛ « فليس لأحد أن يضيق على المسلمين طرقهم ، ويشحنها بما عسى أن يعوقهم » .

- حبس من يجب حبسه ؛ لتعم المصلحة ، وتقلع المفسدة ، ويخف العنت ، وتكف المردة ، بعد ألا تدع تقديم الإنذار ، والتقويم بالإنكار ، فإن نجح القول فذلك أقرب مأخذاً ، وأرشد منفذاً ، وإن احتيج إلى تعديه فلا إقصار دون القيام بحق الله ، ولا اقتصار على ما يغري بسخط الله ، إن الله لا يحب الفساد .

يلحظ قارئ هذا العهد وضوح الأسلوب فيه ، وجلاء العبارة ، وسهولة السجعة ، وقلة التعقيد في التزيين البديعي ، وذلك - كما يبدو - بسبب إدراك الصاحب أهمية الأمر الذي

يتحدث فيه ، وحساسية الموضوع الذي يتعامل معه ، وهذا يحتاج منه إلى تحرر قليل مما يلزم نفسه به - عادة - من السجع ، وانطلاق واضح من قيود البديع ، التي كانت كثيراً ما تتوارى - هنا - وتخف حدتها ، فلا يعود لها المقام الأول من الاهتمام ، ولا تعدو أن تكون وسيلة لتظهر معانيه جليلة ، وأفكاره ناصعة بهية ، ليتحقق للقارئ الفهم الذي يريده ، ولصاحب النص بلوغ القصد فيما يسعى إليه .

ومن هذا أيضاً خطاب آخر - عهد - ضمنه وصيته لمن ولاه البذركة^(٧٣) ، وهي وصية مختصرة ، واضحة مع ما فيها من سجع التزمه الصاحب التزامه في غيرها ، وليس ذلك عجباً ، فقد كان الصاحب نتاج القرن الرابع ، يتمثل فيه منهج الأدب في عصره ، والخصائص التي كانت تطبع الأدب بطابعها آنذاك ؛ فكان للنثر هذا الالتزام بالسجع في جميع رسائله ، تلمس صده مدوياً فيها .

ومع هذا الالتزام الشديد بالسجع ، والتقيد المطلق بالبديع في هذا الخطاب ، إلا أن هذا كله لم يشغل الصاحب عن توضيح قصده ، ولا عن توجيه نصحه ، فها هو يحض من ولأه البذركة علي العدل والمساواة ، والترفع عن الرشاوي ، واستعمال الثقة من الأعوان ، فيقول^(٧٤) :

« إن لما عرفناه من كفايتك ، ورجونا من غناك ودرايتك ، ردنا أمور الدرب والبذركة الموفرة أحوالها على العرب إليك ، واعتمدنا في ضبطها واستخراج الواجب منها عليك ، ورسمنا لك أن تستوفي الرسوم من حيث لا يلحق الرعية والسابلة اهتمام ، ولا ينال العرب انتقاص واحترام ، وأن تجعل الإمام الذي ترجع إليه فيما تستوفيه ، المنشور الوارد من الحضرة البهية وما بين فيه ، وتحصل الأموال على حقوقها مياومة ومشاهرة ، وعند كل رفقة صادرة واردة ، ولا تستعين إلا بمن تسكن إلى ثقته ، إذ كنت المؤاخذ بعهدته . . . فباشر ما مثلناه ، بإيثار النصح لا تتعدها ، ونقاء من الجيب لا تتخطاه ، ورفق بالمعاملين لحسم مادة التظلم ، واستقصاء للالواء يغنيهم عن التألم ، واستزد من إحساننا إليك بالمقام على الطريقة الحميدة ، والشيم الراشدة إن شاء الله » .

٤ - في إسقاط الفروق بين الشهور الخراجية والهلالية^(٧٥) : (أي في مراعاة أوقات المعاملات والكبيسة من السنين) .

وقد اعتبرنا هذا مظهرًا من مظاهر الصفاء والموادعة ؛ لما يبدو فيه من حرص علي إحقاق الحق ، وإشاعة العدل في المعاملات فيما بين الدولة والرعية .

وكان الصاحب قد عمد إلى إسقاط الفروق بين الشهور الخراجية والهلالية تنفيذاً لأمر صدر عن الخليفة المطيع لله ، في مطلع سنة ٣٥٣هـ ؛ « ليزول التفاوت الذي تخلل السنين بين الشهور الخراجية والشهور الهلالية ، ولتكون المعاملات جارية على أوقاتها ، والتواريخ منتظمة على حقوقها ، والكبيسة واقعة على رسومها »^(٧٦) .

لا يصعب على القارئ أن يلاحظ ، أن الصاحب قد أتى في صدر خطابه هذا بما يدل على عجزه^(٧٧) واستهله بما يدل على مضمونه وغرضه ، لكن بأسلوب يكاد يخلو من التكلف البديعي ، إلا ما اقتضته العادة عنده ، ومع هذا فإنه لا يلبث أن يتبع هذا الاستهلال بتحميدات للخليفة والأمير ، بأسطا الكلام فيها بعبارات مسجوعة لا تخلو من تكلف بديعي ظاهر مقصود لذاته ، وهو يسترسل فيه استرسالاً هادئاً دأب عليه في رسائله التي تتناول أمراً من أمور الدولة الداخلية ، فإن مثل هذه الأمور لا تستدعي منه ترسلاً في الأسلوب ، ولا تلزمه اعتاقاً من التزيين البديعي ، كالذي نراه في خطابه ورسائله إلى الخارجين والتأثرين . يقول الصاحب في تحميداته في هذا الخطاب :

« وحمدت الله وشكرت له على ما من به على الأمة ، وأفاضه على أهل الملة والذمة من نظر أمير المؤمنين ورعايته واهتمامه بمصالحهم وعنايته وتدبير أحوالهم بما يجريها على إذلالها ومطالعة أمورهم بما يؤمن اختلالها ... حتى أصبحت الكلمة بين إيلائه متفقة ، وأسباب البلاد والعباد متسقة ، وحتى برز الحق في أحسن ملابسه ونجم العدل في أزكى مغارسه . وأصبح الظلم لا يقتدى بحكمه ورسمه ، ولا يُعرف إلا بذكره واسمه ، حمداً يحصن لأمر المؤمنين جلالاً مواهب الله ونعمه ... »^(٧٨).

وبعد هذه التحميدات يعمد الصاحب إلى ذكر ما أنفذه بموجب أمر الخليفة ، ولكن بأسلوب تخف فيه حدة السجع ، ويختفي منه عنف التكلف ؛ إذ تطفو الحاجة - في هذا الجزء من الخطاب - إلى الإفهام ، على الرغبة في التزيين ، ويميل الأسلوب عند ذلك إلى الموازنة بينهما ، يقول الصاحب :

« وقابلت الأمر بامتثاله علي الرسم في أمثاله ، وأوعزت في بناء الحسابات ، وعقود الضمانات ، وما يجري مجراها من الشروط والموافقات على ما رُسِمَ ومُثِّلَ ، وقرَّرَ وحُصِّلَ ، فصار كل حول يدعو إلى نفسه ، ويُخبر عن دخله وخرجه ، لا حاجة لعامل ولا معامل إلى تبديل جاري سنة ، واستعارة اسم سنة لسنة . وكاتبته بذلك أصحاب الأطراف التي استخدمني الأمير السيد في مراعاتها ؛ ليُجروا عليها أمر رفوعها وحساباتها ، فيكون ما تجدد من رأي أمير المؤمنين شاملاً شمول عارفه ، وما قدمه الأمير السيد عاماً عموم فواضله ، وليصير رسماً يدوم ويخلد ، ويقرر على وجه الدهر ويؤيد ... »^(٧٩).

٥- التلطف في استقطاع إقطاعات الديلم^(٨٠) : وهو موضوع خطاب بعث به إلى الأمير صاحب الجيش :

بعد مقدمة تمحيد ودعاء ، يشير الصاحب على الأمير صاحب الجيش أن يترث فيما سيقدم عليه من تخلص إقطاعات من أيدي الديلم ، بل هو يشير عليه أن يعوض كلا منهم عما في يده . وقد برر الصاحب - في هذا الخطاب - لصاحب الجيش عدم رده بالإيجاب ، بأن الأمر

غاية في الحساسية ، ويحتاج منهم جميعاً إلى التآني والتصرف الحكيم ، خصوصاً مع هؤلاء القوم ، إذ يبدو أن صاحب كان عالماً بنفسية الديلم وأمزجتها^(٨١) كما يدل على ذلك هذا الخطاب لذلك لم ير من الحكمة التسرع في انتزاع ما بأيدي هؤلاء مما علقوا به من الإقطاعات ؛ لأن هذا يبعث على السخط ، ومن ثم علي الثورة ، فهل بعد هذا موادة ؟

يقول صاحب في هذا الخطاب :

« هذا والأمير صاحب الجيش الوسيط والمشير ، فلا خلاف عليه فيما يوميء بالإشارة إليه إلا أن الديلم تعرف صورهم في الإقطاعات إذا علقوها وفارقوها ، وعلكوها وفكوها . وأن ارتجاع ما يراد تخليصه منهم مقتض أدنى ترفق وتمهل ، والإرضاء بالإبدال من دون تهجم وتعجل . ولولا ذلك لما عاد الرسول إلا بالإجابة التي كانت النفس معها أذهب ، ولها أطلب . وقد مثل لي أن أشغل كتاب الجيش والإقطاع بتعويض من رضي بالمعوضة والإسعاف بالزيادة والمعونة . وهذا أمر يلزمني فيه مع امتثال الأمر بذل الجهد ، واستغراق الوسع ، وسيأتي - بمعونة الله - ما يقرب المدة ويدنيها ، ويسرها ولا يراخيها »^(٨٢).

يلاحظ من خلال قراءة هذا الجزء من الخطاب ، أن صاحب قد أثر فيه الوضوح والهدوء ، مع تسجيع بسيط ، وترسل مشفوع بمزاوجة بسيطة . وإذا نحن عزونا ذلك إلى شيء فإننا نعزوه إلى خطورة الموضوع الذي يتطلب الوضوح في العبارات ، والاعتزان في التسجيع ، حتى يكون كلامه واضحاً وغرضه مفهوماً ، وحتى لا يحصل التباس ، ولا يترتب على ذلك ثورة ولا خروج .

٦- الألفة بين الطوائف المختلفة : هناك مواقف عدة تظهر فيها موادة صاحب في موضوع الألفة بين الطوائف ، من ذلك : ما ورد في الرسالتين الخامسة والسادسة من الباب السادس ، وقد كتبهما بصدد نشوب ثورة في قزوین ، بين العلوية^(٨٣) وغيرهم .

كان صاحب بن عباد يكره كل ما يحدث خللاً في الدولة ، أو يثير فتنة فيها ، ولعلّه - من أجل ذلك - لم يحاول أن ينصر مذهب الشيعي أو يؤيده في أية بقعة من البقاع التي كان متنقداً فيها ، لذا لم يشأ أن يتدخل فيما نشب من نزاع بين العلوية^(٨٤) وغيرهم في قزوین ، بل أهاب بالأشراف من العلوية أن يطفئوا نار هذا النزاع ، وأن يتحللوا بالتؤدة في معالجته ، كما يبدو في الرسالة الأولى : « وقد علم الشريفان أن الصّلاح تجتمع أطرافه ، وتُحرَس أكنافه ، باطّراح الضعائين ، وتسوية الظواهر والبواطن ، والأخذ بالخلق السمح وترك المشاققة والشح ، وأن المعارة تورث التباعد ، وتزيل التعاون والترافد »^(٨٥) إلى أن يقول : « وأنا أتوقع ما يكون من هؤلاء الأشراف »^(٨٦) - أيدهم الله - في الاستجابة لما رسمت ، والتزام ما التزمت ، ومن الشريفين - أيدهما الله - في إصلاح ذات البين ، والصبر على إيقاع الاتفاق ، ورفع الافتراق ، واستعادة الائتلاف ، وإمالة الاختلاف إن شاء الله »^(٨٧).

أما في الرسالة الثانية - في موضوع هذا النزاع - فإن الصاحب يمثل للطوائف المتنازعة ما يفعلون ، وهو في كل ذلك لا يتعصب لإحداها على الأخرى ، كما لا يلزم طائفة بالعدول عما اختارته من مذهب وطريقة ، وهذا هو بعينه الصفاء والمودعة ، في تعامله مع الطوائف المختلفة .

يقول في الخطاب الثاني :

« وسبيلك يا أخي - أطال الله بقاءك - أن تعقد مجمعاً تحضره الوجوه والأعوان والأمثال والصدور . والأفاضل دون الأذئاب الذين لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يعون ، وتقرئهم كتابي فإن الله يعلم أن بغيتي صلاح عامتهم وحصول الخير لجماعتهم واتفاق كلمتهم ، وارتفاع الشر من جملتهم ، لا أن طائفة تلزم العدول عما اختارته من مذهب وعقيدة ، واجتنبته من نحلة ضالة أو رشيدة ، فالخلاف متفاد بين الجماعة ، لا يرتفع إلى قيام الساعة ، وإنما يأمر السلطان بأن يلزم كل ما تخيره من دون مشارة ، وينفرد بما آثره من غير مضارة ... » (٨٨).

هدوء النفس ، ورصانة التعبير ورزانة اللهجة ووداعتها تبدو كلها واضحة في النصين ، وهي بلا شك تنطق بشخصية الصاحب السياسية الحكيمة ، وتعكس قدرته على معالجة الأمور بحنكة ودراية . ولقد تجسدت هذه الأمور كلها في أسلوبه وهذا الأسلوب وإن كان موشى بالتزيين البديعي ، فهو متزن ، واضح المقاصد ، حسن الإفهام ، مزج فيه الصاحب العظة بالإحماذ ، والتنبيه بالإرشاد وهو مع هذا كله لم يخرج عن دأبه في الحرص على التسجيع والازدواج والترصيع ، ومن إطالة في المقدمة اقتضاها كما يقول : « ما قد شجر بين أهل قزوين ... من خصام تتفق أسواقه ولا تُكسر ، وتهب رياحه ولا تركد » . ولقد فصل في المقدمة أسباب تلك الفتنة ، وما حل بأطرافها من الضرر . ولم يكتف بذلك بل مثل للأشراف ما يفعلون من أجل السيطرة على الأمور وردع الخارجين ، ليستتب الأمن ، ويأخذ كل ذي حق حقه ، وهذا هي المودعة التي نراها في هذا الخطاب .

يدخل في موضوع مودعة الصاحب للطوائف المختلفة ، مودعة أبقاها الصاحب للمعتزلة^(٨٩) من خلال تعيين أحد قضاتهم ، وهو القاضي عبد الجبار بن أحمد^(٩٠) ، حين عينه في ولاية القضاء في جرجان وطبرستان وما يليهما من أعمال ، بالإضافة إلى قضاء الري الذي كان يتولاه من قبل .

ومع وداعته هذه للمعتزلة فإنه لم يشأ أن يثير أهل السنة في كل الأمور ، وقد ورد ذلك كله في عهده الذي كتبه لهذا القاضي يأمره فيه باتباع الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس ، كما يأمره أن لا يأخذ بالآراء الشاذة ، وأن لا ينقض آراء من سبقه من القضاة . يقول في مقدمة هذا العهد :

« هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد ، حين ألفه الكافي فيما استكفاه ، الوافي بما قلّده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قضائه بما أحمد فيه رضي مسعاته ، مؤدياً حقَّ الله في الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجب الدين ومقتضاه ، والإمضاء على سنن الشرع ومفضاه ... قد ضُرِبَ لحسن مذهبه الأمثال ، وشُدَّتْ إلى اقتباس علمه الرحال ... »^(٩١).

ومن الأمور التي أمره بها (على لسان مؤيد الدولة) :

- تقوى الله : « أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات المنجية ، ومغلاق الشهوات المردية ... » .

- كتاب الله : « وأمره بأن يجعل مصباحه في ظلم الأمور ، واستنجاحه في الحكم بين الجمهور كتاب الله الذي أنزله ، وبينه وفصله ، وأودعه ما قدّم وما حدث ، ونصبه حجة على من ورث وورث ... » .

- سنة رسول الله : « وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم وعلى آله - تالية كتاب الله في الاقتداء ، وجارية مجراه في الاقتفاء ، إذ كانت العروة التي لا تنفصم ، والعمدة التي لا تتلثم ... » .

- إجماع المسلمين : « وأمره بأن يتلقى الإجماع بالاتباع ، ويحترس معه من الابتداع والاختراع ، فقد خص الله بفضيلته أمتنا دون الأمم ... وهو حبلٌ من الله ممدود ، وكنف في دين الله مهود ... » .

- القياس والاجتهاد : « وأمره إذا عرض له ما لم يُفصح به الكتاب نصاً وإسماعاً ، وإن لم يفرط فيه تضميناً وإيداعاً ، ولم تأت به السنة كشفاً وتنويهاً ... أن ينظر نظراً ينعمه ، ويصابر الفكر فيه فلا يسأمه » .

- الشورى : « وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولى المعارف الموفورة من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قنية ، وللإسلام حلية » .

ومع ما في هذا العهد من إصرار على التزام البديع والترصيع ، وحرص على التزيين والتسجيع ، فإن هذا كله يكاد يتوارى « أمام فيض المعاني البارزة ، والأفكار الواضحة ، والتعاليم الرشيدة ، فلا يبدو أبداً أن في هذه العهود عبارة مقسورة ، أو لفظاً مجتلباً ، وإنما هي العبارة الناصعة المتحملة لأجود المعاني وأوضحها »^(٩٢).

ثانياً : الصفاء والموادعة في تعامله مع الخارجين والمعارضين

ذكرنا فيما مرّ ، أن صاحب كان وزيراً ناجحاً وقائداً مظفراً ، أهله لأن يكون كذلك سياسة

حكيمه وخلق رفيع ، جعلاه يسيطر على زمام الأمور في الدولة سيطرة تامة ، نعم خلالها الناس بالأمن والاطمئنان ، بنشره العدل وحرصه على الأمن .

لم يكن تعامل الصاحب مع الشؤون الأخرى بأقل حنكة ودراية من ذلك ، فقد استطاع أن يُطَوِّعَ الشائرين والخارجين ويكبح جماحهم ، حتي أتوه يخطبون وده ورضاه : فكما كانت بعض كتبه ورسائله تدير دفة الحكم في الداخل ، كانت أخرى تقوم مقام الجيوش في الظفر بالأعداء والخصوم ، وتطويع الخارجين ، وإعادتهم إلى حظيرة الدولة خاضعين . فلا عجب بعد ذلك أن يقول عنه صاحب المنتظم : إنه كان أفضل وزراء الدولة البويهية^(٩٣) .

١ - وكمثال على تعامل الصاحب مع الخارجين والمعارضين نورد كتاباً له بعث به إلى السلار^(٩٤) ، وكان هذا قد باشر ببناء حصن مخالفاً بذلك أوامر صدرت عن عضد الدولة بالكف عنه ، وفي هذا الكتاب شيء من العتاب المشوب بالتوبيخ ، والإحماذ المبطن بالتهديد ، يقول فيه^(٩٥) :

« السلار أقوى عزيمة ، وأوضح بصيرة ، وأحسن بالأيام معرفة . وأتم بالزمان خبرة من أن يرضى لأفعاله بالتناقض ، وخلاله بالدافع ، ولعقوده بالتهافت ، ولشروطه بالتفاوت . وحين عاد فلان وفلان فأديا ما هو الجميل المقدر من مثله ، والرأى المقرر في نتائج فضله ، حمدت الله كثيراً ، وشكرت له طويلاً ، ووجدت إلى الخدمة في الجهتين طريقاً فسيحاً ، ومجالاً رحيباً ، وقلت : الآن حين أجلي عن عقيدتي ، وأفصح عن طويتي ، فلم يلبث الكلام بين السمع والقلب إلا أقل من رجع الطرف ، حتى أتت الأخبار بما شرع فيه أصحابه من بناء حصن يقرب من زنجان^(٩٦) كان الكف عنه واقعاً ، وتوخي مرضاة الأمير السعيد^(٩٧) ، قدس الله روحه ، بالإسباك دونه سابقاً ، فوجد مولانا^(٩٨) هذا الصنع منافياً للرسائل المتحملة ، متجافياً عن الشرائط الملزمة ، فإن الحصن وإن بناه السلار في ناحيته ، ورفع في مملكته ، فمئله إذا أسس محاداً لهذه النواحي موحش ، والاشتغال به بعد الإعراض عنه في سالف الأيام مخرج . والسلار يطيع الرأي الشاقب ، لا الهوى الغالب ، والصواب الأصل لا الخطأ الدخيل ، ويحرس الحال بين موليتنا^(٩٩) ، وبينه عما يريب السامع ، وينطق الحاسد ، ويقع النفار بين الجنبتين ، ويقدر في صلاح ذات البين : فقَدَّرَ هذا الحصن معروف وخطر الجدوى فيه معلوم ، ووزن الضرر في إعفاء رسمه مضبوط . وقد بادرت بخطابي إلى حضرته ليصيح لمودعه ، ويحكم إجالته في تبعه ، فإن وجدني صدعت بالنصح أصغى له إصغاء قابل ، وإن اعترضه الشك أعرض عنه إعراض دافع ، وقد أوحش هذا الفعل كل الإيحاش ، ليس للحصن ومقداره ، ولكن لتصيير أول الصنيع دليل أعقابه . وما أطيل ، علماً بأن الإيجاز يكفي مع تمثله كل أمر على وجهه ، وسبره بجزالته واستدراكه لغوره ، فإن رأي - آدم الله عزه - أن يجيبني جواب من يحرس مخاطبه عن المعارضة ، وناصحه عن المناقضة ، ويغلب مودات العظام على بناء المعاول ، فإنها الحصن في العاجل والآجل ، فَعَلَّ إن شاء الله » .

نستطيع أن نتبين الصفاء والموادعة في هذا الخطاب ، من خلال الأمور التالية :

- الهدوء الذي يغلب عليه ، مع ما فيه من حث للسلار على أن يكفَّ عما شرع به ، ولكنه

حثّ وادع: فهو يذكره بولائه للأمر، ويمتدح ذلك فيه، ثم يُعقِّبه عتاباً تملو نغمته، حتى تصل حدّ التقريع الهاديء؛ فهو لا يريد مهاجمته باللفظ لئلا يثيره أو يستفزه، بل تراه مرة يوادعه موادعة لطيفة، وأخرى يواجهه مواجهةً، لا تصل حدّ العنف على كل حال، فكأنني به كان يحرص أن يبقى بينه وبينه (شعره معاوية)؛ لعلّمه أن مواجهته بكلامه سيفعل فيه فعل مواجهته بالسيف.

- ثم التأنق في الأسلوب: لقد تأنق الصاحب بأسلوبه - في هذا الخطاب - تأنقاً كبيراً، في سجعته وازدواج عباراته، وفي مجاملته وإطرائه، كما يلوح الحذر الشديد في تعبيراته من خلال انتقاء ينم على دراية تامة وسيطرة كاملة على أدوات اللغوية والتعبيرية، محاذراً أن تقع منه لفظة هنا أو هناك يساء فهمها، أو تثير السخط عند المخاطب، فيفشل القصد من الخطاب، لذلك نلاحظ هدوءاً يرين على ألفاظ وكلمات وعبارات هذا الخطاب، كما نلاحظ عدم استعمال الصاحب فيه الكلمات الرنانة، ذات الوقع العنيف، والتهديد الصريح؛ فكأن عباراته وألفاظه صدى لنفسه، التي كانت تؤثر الموادعة والهدوء في مخاطبة هذا الرجل ذي الشأن الخطير، فقد كان « هذا النمط من الكتابة القوية يُمثّل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك العهد، فهم يرون رسائل التهديد والوعيد (وإن كانا مستترين خلف السطور) طلائع من الأفلام تتقدّم طلائع السيوف »^(١٠٠). ولقد كانت هذه سياسته في التعامل مع الخارجين والشائرين: سياسة موادعة هادئة، لعل من خرج عليه يرتدع عن خروجه، ومن أثار العصيان يثوب عن عصيانه.

٢- خطاب الفتح الأكبر بجرجان الواقع بين الخراسانية^(١٠١): وهو الفتح الذي تم النصر فيه لعضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة على أخيهما فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير^(١٠٢). وهو خطاب طويل، يفصل فيه الصاحب ملابسات وظروف هذا الفتح، ممعناً في ذلك حتى يذكر أصوله الأولى أيام ركن الدولة - والدعضد الدولة ومؤيد الدولة وفخر الدولة - وابن العميد خلال خلافة المطيع لله، كما يذكر الصاحب فيه كيف تم التعامل مع الأحداث آنذاك حتى يصل إلى وقته، ليكون ما تم تنفيذه - حيال ذلك - مبرراً، ذلك أن فروع من خرج آنذاك خرجت على عضد الدولة، وهو قابوس بن وشمكير، الذي كان أبوه وشمكير بن زياد قد قارَعته جيوش ركن الدولة حتى خدّته^(١٠٣)، وأخذت عليه العهود والمواثيق فلم يمتض ماضيهم لسبيله حتى أخذ خلف السوء في تبديله بخرق لأوصال الوفاء قطّاع، وعرق إلى الضلالة والسوء نزاع^(١٠٤).

ولم يكتف قابوس بذلك، بل استثار فخر الدولة على أخويه، فانضم إليه يحاربهما^(١٠٥) ومع ما كان من أمر قابوس وفخر الدولة، « فلم ندع - هنا الصاحب يكتب - أن أصدرنا إلى

زعيمهم رُسُلنا مذكّرين بالعهد المبذول ، وميثاق العقد الموصول ، ومحذّرين من عاقبة الناكثين ، وما كتب الله للحائثين ، ومطالين برد الآبقين على أمان تتبرّع ببذله ، وصفح عنهما تأخذه بفضلته . فأصر هو ومدبروه على الامتناع ، وعوّلوا على الدفاع ، وأخذوا يشفعون شفاعته التحكم ، ويشفعونها بالتوكد والتجرّم ... فكفّفنا عنهم إلى أن بدؤوا بالقتال ، وحسّن لهم الطغيان نحو الصيَال ، وقد كان طردُهم ، بل حصدهم ممكناً - بعون الله - من أول لقائهم لولا إشارتنا البُقيّا في إمهالهم وإمهائهم^(١٠٦) ، وتقديرنا أنهم إذا مارسوا الحرب فوقدّتهم بنارها ، وأقذّتهم بعوارها ... تلافوا أحوالهم فلم تُرَق دماؤهم هدرًا ، ولم تُفَرّق أشلاؤهم جزرا ...»^(١٠٧) .

ثم يسهب الصاحب - بعد ذلك - في وصف المعركة التي نشبت بين الفريقين ، فيذكر كيف كانت نهاية العصّين على أيديهم ، إذ « أخذت الرماح تطيرُ شررُها ، والنفوس تفارق قصرها^(١٠٨) ، وثملت الزويينات^(١٠٩) من الدماء ، فتعثرت في النحور وتكسرت في القلوب والصدور^(١١٠) . وما أن ينتهي الصاحب من ذلك حتى يعقبه حمداً لله على منته ، ودعاء للأمير عضد الدولة وللخليفة الطائع لله .

هذا الخطاب الذي بعث به الصاحب إلى الأمصار ، بشرى بهذا النصر ، يعكس بوضوح مودعة الصاحب ، ولينه في التعامل مع الثائرين . وهم هنا : قابوس بن وشمكير ، وفخر الدولة ، وإن كانت نهاية ذلك حرباً ضرورياً ، فلقد بعث الصاحب لهؤلاء ، محاولاً ردعهم عما هم عليه من القصد ، رفقا بهم وحقنا لدمائهم ، ولكنهم آثروا الملاقاة ، وكان ما كان ، ويظهر الحرص على عدم إشعال الحرب في هذا الخطاب في مواقع عدة منها :

- « فلم ندع أن أصدرنا إلى زعيمهم رُسُلنا^(١١١) مذكّرين بالعهد المبذول ، وميثاق العهد الموصول ، ومحذّرين من عاقبة الناكثين ... على أمان تتبرّع ببذله ، وصفح عنهما تأخذه بفضلته^(١١٢) .

- وقوله في موقع آخر : « وكانت لنا يومنا - وهو يوم الأربعاء لثمان بقين من ذي العقدة - حركة إلى المعركة ترجحوا فيها من تقديم للأقدام وتأخير ، وتعجيل للإقدام وتحذير ، مقدرين أنا نجري على العادة في إرجائهم ، وتركهم يعودون من ورائهم ... »^(١١٣) .

ولعلنا نزع هنا أن هذا الخطاب وثيقة تاريخية هامة : فقد أورد فيه الصاحب تفصيلات هذه المعركة وملابساتها السابقة بشكل مفصل ودقيق ، كما أورد أسماء قواد الأطراف المتقاتلة ، إضافة إلى وصف لتسير المعركة . ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام ، أن الصاحب مزج في خطابه هذا بين التأريخ وبين الكتابة الديوانية مزجاً واضحاً : فظهر التأريخ في سرد الحوادث

والوقائع سردا دقيقا صادقا ، وظهرت الكتابة الديوانية في فنيها وبراعة صياغتها ، فكان ذلك ما يعرف اليوم بالتقرير^(١١٤) ، لكن بأسلوب ذي خصوصية متميزة أضفاها صاحب عليه ببراعة .

وكما أن هذا الخطاب وثيقة تاريخية ، هو أيضاً وثيقة أدبية ، تتجلى منه رسوم الرسائل الديوانية ، بما فيها من عذوبة اللفظ وجمال النغم ، كأوضح ما تكون ، ذلك أن صاحب قد عمد فيه إلى بسط الكلام ، كما هي العادة في هذا المقام^(١١٥) فهو يصف الفتح ، وما تقدمه من ملاسبات . وكما كانت مقدمة الخطاب طويلة كانت خاتمته كذلك . فنحن نرى صاحب قد بسط الكلام هناك في شكر الله وتعظيم هذا النصر ، ثم أشاد فيها بما اتصف به أميره وخليفته (الطائع لله) من عزم وإقدام وجلد . ولقد أدرك صاحب ما وقع فيه من إطناب واسترسال في كل ذلك ، فأشار إليه مبررا « حدثناك - أدام الله عزك - بنعمة الله وإن كبرت عن بيان المخبر ولسان المبشر ، وإطناب الكاتب وإسهاب الخاطب »^(١١٦) .

لقد حشدَ صاحب في هذا الخطاب قدرته الفائقة على التصوير والتلوين البديعي ، كما حشدَ الطِّباق والجناس إلى الغريب من الألفاظ : فكأنى به أراد أن يعلو خطابه بألفاظه الطَّنَّانة وحروفه الرَّنَّانة ، وترصيعه البديعي ، وتزيينه البياني ، - إلى مستوى ذلك الفتح ، الذي طبقَ الآفاق خبره ، وعمَّ الأمصار بشره ، فعمدَ إلى ما عمَدَ إليه من التأنيق في سجعته والتعقيد في بديعه ، ونمَّثل على ذلك بالفقرة التالية من الخطاب نفسه :

« فالحمد لله المانِّ على خلقه بما لا تناله الآمالُ كرمًا ، ولا تُقَلُّ الجبالُ عظمًا ، القاسم لذوي طاعته ما لا مُنَّة بلغت ، ولا طلبَةٌ انتجعتُ ، كما أعد لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتُ ، الراصد لقارفي معصيته بظُلُم من الخذلان ترهقُ وتُعسفُ ، وتُرْهَقُ وتُكسفُ ، وتوبقُ وتُسْفُ ، وتوثقُ وتُخسفُ ، كما توعدهم بعذاب الخلود ، حمداً يكون كفاء ما هيأ فقرَّبَ ، وهنَّا فأُطْلِبَ »^(١١٧) .

ويبدو صاحب في هذا الخطاب مشغوقاً بالصور البيانية ، كما يتضح في وصفه للمعركة ، إذ يقول : « وأخذت الرماح تطير شررها ، والنفوس تفارق قُصْرَها ، وثملت الزوبيباتُ من الدماء فتعثرت في النحور ، وتكسرت في القلوب والصدور »^(١١٨) . ولعل ميله إلى التصوير في كتاباته جعله يبرع في وصف المعركة ، مما جعل رسائل أخرى له تتحول إلى ما يشبه الشعر المنظوم^(١١٩) . يضاف إلى ذلك أنه من جهة يعني بقصر سجعته ، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر ، ثم هو من جهة أخرى يعنى بألوان البديع يحلِّي بها جيد أساليبه^(١٢٠) . وإلى جانب ذلك كله ظهر صاحب في خطابه هذا أدبياً شامخاً : أسلوباً ونفساً ، فهو لم يُسِف فيه مع كثرة تمديداته ، وإطنابه في إطرء أميره وخليفته : فقد اختفت هنا عبارات التفخيم والتعظيم والتذلل مما كان مألوفاً في رسائل هذه الحقبة ، وفي

مثل هذه المناسبات .

٣- كتب الأمان (التي بعث بها الصاحب إلى بعض المعارضين مع أخذ الموائيق منهم على الطاعة) : وكتب الأمان هذه كان يصدرها الصاحب : إما باسم الأمير مؤيد الدولة ، أو باسمه هو وهذه الكتب تُتَسَمُّ بملاحظات أهمها :

- الإيجاز ، بالمقارنة مع رسائله في غير هذا الموضوع .
- الهدوء ووداعة النبرة فيها ؛ لئلا ثما قصد الكتاب ، وهو : الأمان وبث الطمأنينة في النفس .

- اختلاف كل واحد من هذه الكتب عن الآخر في الغرض والأسلوب والقصد .
- لا نكاد نجد الصاحب - فيها - يُكرّر معنى أو يُعيد لفظاً ، إلا في الأحوال النادرة .
- وكتابة الصاحب في هذا النوع من الرسائل سهلة واضحة ، تقبلها النفس ، وهي مع ما فيها من التزام السجع يقل فيها التكلف ، ويتغلب عليها الطبع والترسل .
- يلزم الصاحب نفسه في كل العهود بوعده قاطع بعدم الخيانة ، وهذا بعينه مودعة صريحة .

وبعد هذا كله يمكننا أن نزعّم أن الصاحب ، في عهود الأمان هذه كما في غيرها ، برهن على أن الكاتب القدير « يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة تفيض بالعدوّة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس »^(١٢١) .
فمن كتب النوع الأول ، التي على لسان مؤيد الدولة ، كتاب أمان ، فيه عتاب في إخلال وقع ، يقول فيه :

« هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة ، مولى أمير المؤمنين لفلان : إنه أنهي عنك إخلالك بمرکزك كذا خيفة من أحوال رفيت ، وانبساط أيدي الضمناء في استخراج منك ، ورغبتك في إنشاء أمان تعود به إلى وطنك موفوراً غير معذور ، فرأينا ، لما عليه النية في كافة الرعية ، الإيعاز بذلك : فأنت - متى عاودت مفرّك ، ولزمت شأنك وأمرك - آمن بأمان الله وأمان رسوله ، وأماننا الذي لا حلّ لعقوده ، ولا نقض لمعهوده ، ولك أن توّزع بصياتك وحياطتك ، وقبض الأيدي عن هضميتك . ومن قرأ أو عرض عليه كتابنا هذا من طبقات الولاة والضمناء ، والعمال والأولياء ، فليعمل . ذلك عن رسمنا ، وليقتف ماضي حكمنا إن شاء الله »^(١٢٢) .

ومن هذا أيضاً كتاب أمان آخر على النفس والمال للخارج ، يقول فيه :

« هذا كتاب من مؤيد الدولة لفلان : إنه أنهي ما اضطرّك إلى الخال التي ركبته ، والخطّة التي احتقبتّها ، والتماسك من نظرنّا ما يثبت قدمك ، ومن أماننا ما نتلافى به فرطك ، فأنت متى سلّمت القلعة^(١٢٣) »

إلى ثقافتنا ، وردتْ حضرتنا أو أين اختُرْتُ من بلاد مملكتنا ، آمن بأمان الله - عز وجل - وأمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأماننا المقرون بالوفاء المعروف حكمه في الدهماء ، ولك عندنا تحديد الاصطناع ، وسنّي الإقطاع ، لا نؤاخذك بجريرة تقدّمتْ ، ولا جريرة سلفت ، وعهد الله مبذول ، وعليه مأخوذ ، والله حسبنا ونعم الوكيل »^(١٢٤) .

فهل أكثر من هذا صفاء وموادعة ؟ ففي هذا الخطاب عتاب مشفوعٌ بتبرير ، حتى تهدأ نفس هذا الخارج ، وليأمن على روحه ، لذا عمد الصاحب فيه إلى أسلوب وادع هاديء ، ينساب فيه الاطمئنان ، وتنداح عن ألفاظه رنة الأمان ، بل أكثر من ذلك ، فقد كان يُثيبُ من يثوبُ عن ضلاله ، ويثوب إلى رشدّه صفحاً وأماناً ، وإعادة اصطناع كما نجد في كتب أمان أخرى غير هذا .

نعود إلى القول : إن الرسائل التي كتبها الصاحب بن عباد على لسان مؤيد الدولة « تعبّر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عمن يكتب باسمه »^(١٢٥) ، ذلك لأنه كان كل شيء في الدولة التي يسيطر عليها باسم أميره الذي أطلق يده في كل شيء ، حتى في رسائله يكتبها باسمه كيف يشاء ، لثقتّه أن وزيره قوي ، وسياسي قدير ، يستطيع أن يتصدّى للمشاكل مهما صعبتْ ، ويعالجها كأحسن ما تكون المعالجة .

وأما كتب الأمان التي صدرت باسمه ، فنورد المثال التالي عليها :

« كتابي ، ومولانا معمور الساحة بالعزّ والملك ، وأنا في ظلّه سائم النفس ، والحمد لله ربّ العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وقد أنفذتْ إلى حضرته نسخة اليمين التي حلفتُ بها في تسليم القلعة والضيعة معها ، إذا أومنتْ وأقطعت ما رُمّتْ ، فحمدت الله تعالى أن هداك وأرشدك ، وسألته أن يوفقك ويسدّك ، فإني أعلم أن الضرورة دعتك إلى ما ركبته ، وأوقعتك فيما فعلته ، وصوّرت ذلك في المجلس الشريف حتى تنجزت لك أمان مولانا بكرم صفحه ، مختوماً بعالي ختمه ، ووقعت فيه بخطي عن نافذ أمره ، وضمته كذا إلى ذكر الإقطاع ، ومزيد الاصطناع ، وعرفت أنك تؤثر التسلم من يصدر عن الحضرة البهية ، فتسكن إلى مكانه وتركن إلى كلامه ، واخترت فلاناً ، إذ كان مع موقعه من رأي مولانا وإيجابه وتقدمه في أكابر حاشيته وحجابه ... فأصغ لكلامه الذي تحمله ، واغتنم الحظ في وقته لتحصله ، وإياك والمدافعة والمراجعة ، فإنهما يهدمان ما قد بنيت له ، ويثلمان ما مهدته عنك ... »^(١٢٦) .

واضح أن هذا الخطاب - بمقارنته مع سابقه من هذا النوع - يختلف اختلافاً طفيفاً عنهما ، من حيث : تأنق صاحبه فيه ، ومن حيث ورود السجع بشكل أكبر من وروده هناك ، إضافة إلى أن الكاتب يميل في كتب النوع الثاني إلى بسّط الكلام ، مع شيء من الحدة والتهديد ، لكنه لا يصل بتهديده هذا حدّ العنف ؛ لأنه حذر وحريص أن لا يثير من يخاطبه ، لهذا جاء كلامه متوازناً وادعاً هادئاً ، إذ القصد في النهاية بثّ الأمان في النفس ، وبعث الاطمئنان فيها .

٤- مناصحة الولاة ممن كانوا عاصين ، بترغيبهم وتأليف قلوبهم ، وتلطيف الجو عند الأمير لصالحهم^(١٢٧) : الرسائل في هذا الموضوع كثيرة ، وكثرتها تقوم دليلاً على حسن سياسة كاتبها ، الذي كان يحرص على سلامة العلاقة بين الرئيس والمرؤوس ، لتنظيم الأمور ، وتختفي الشكوى . وهذه الخطابات في مجملها صدرت عن صاحب إلى الولاة والعمال ، بعد أن يكون قد رقي إليه عن أحدهم ما لا يحمد ، فيبادر إلى الكتابة إليه ؛ ليهدّي من روعه أولاً ، وليعاتبه فيه ثانياً ، إضافة إلى استمالته ، مع وعد منه بتجلية صفحته عند الأمير .

لم تخل هذه الخطابات من توبيخ ، أو تقرير في بعض الأحيان ، لسقطة بدرت ، أو محاولة خروج - على الأمير - لاحت وفي الوقت نفسه لم تكن تخلو من حث - للمرسل إليه - على إظهار الولاء والطاعة للأمير ، بالحضور شخصياً (إلى حضرته) ، بعد أن يكون صاحب قد مهد لهم بذلك عنده .

ومن ذلك أيضاً ، خطابه لأحدهم في الإحماد والتأنيس والبسط من الأمل ، يقول فيه ، بعد مقدمة تقليدية ، فيها تلميح للأمير ، ودعاء له موجزان :

« وكتب فلان يخبر بما كان منك حضوراً عنده والتقاء معه ، وإخباراً عن الحال التي أزلت الحجة القاصدة ، والمحاذير التي ألبأت الاختبارات الفاسدة ، وأنت قد تبينت ما هو أحمد حاضراً ومغيباً ، وتحققت ما هو أسعد بدءاً ومعقباً ، وألزمت نفسك من فروض الخدمة أضيقها ، اعتلقت من حبال الطاعة أوثقها ، حتى تقابل إعلانك وإسراك ، وتناصف كتمانك وإظهارك ... وبسط القول في ذلك بسطاً سألني معه أن أكون بحضرة مولانا كفيلاً بما بذلته ، وزعيماً بما ضمنت ، وقد علم الله أنني لم أزل لحقاً موجباً ، وفي اصطناعك مرغباً ... ولمن جاورك من العمال فأساء عشرتك ، وقبح مجاورتك ذاماً لائماً ... وقد عفا الله عما سلف ، وجلل صفح الأمير المؤيد ما فرط ، وأوردت في مجلسه الشريف عنك ما وثق كل التوثقة بك ، علماً بأن أمراً أنزله هذه المنزلة من قبالي ، وأرتبه هذه المرتبة من اهتمامي ، كيف يقابل بالجد في تحقيق ما أوردته ، وكيف يعاجل بالاجتهاد في تصديق ما أضمنه . وقد جمع مولانا من التجاوز عما سبق حتى سقطت المحاسبة عليه ... وبين إحسان يبلغ المراد ويعجل الإسعاد ... وستخطب السنة الأيام بما تلبسه من رياش الخطوة ، فتأسف على ما فات من أوقاتك وتراخي من أمد سعادتك ... » (١٢٨).

زخر هذا الخطاب بتفنن صاحب بالسجع والازدواج ، إضافة إلى التشبيهات والاستعارات الغربية ، كما هي الحال في قوله : « وستخطب السنة الأيام بما تلبسه من رياش الخطوة » .

ولقد اطرّد السجع في هذا الخطاب اطراداً كبيراً ، دون أن يخالطه تصنع أو تكلف ، ومع حرص صاحب عليه في كل جملة ، إلا أن أفكاره - رغم ذلك - اطردت ، وتلاحقت ، بحيث اتضح القصد منها ، فلم تشق على كاتبها ، ولم تستغل على قارئها ، وهذا يدل على إجادة صاحب للغة ، وقدرته على تطويعها في شتى الموضوعات : سياسية كانت أم تاريخية

أم تنظيمية إدارية ، أم غير ذلك .

ثالثاً : الصفاء والموادعة مع الخليفة في بغداد

كثيراً ما يورد الصاحب في رسائله عبارات ، يقرن فيها ذكر خليفة بغداد ، مع ذكر الملك السيد (عضد الدولة) ومولانا السيد (مؤيد الدولة) بخاصة في تجميداته في مقدمات هذه الرسائل ، وهذا أمر يسترعي الانتباه ، ويحمل في طياته تفسيراً واحداً ، وهو : حرص الصاحب على سلامة واستمرار العلاقة بين أسياده البويهيين وبين الخليفة في بغداد ، مما حداه إلى إضفاء مسحة من الموادعة والصفاء عليها ، ولو كان ذلك بالدعاء للخليفة في هذه الرسائل .

نورد فيما يلي مثالا على ذلك رسالة بشرى^(١٢٩) انتصار عضد الدولة على ابن حمدان وبني شيبان يقول فيها^(١٣٠) :

«... فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، مادام الحمد منطوقاً به وملفوظاً ، كان الشكر لازماً ومفروضاً ، إذ مهد لأمر المؤمنين الخلافة فعظم دلالتها ، وفخم جلالها ، وظاهر أمارات صحتها وثباتها . وضاعف سمو منازلها وعلو رتباتها ، وعضدها من الملك بحافظ عزتها ، وتاج ملتها ، وسائس اجنادها ، ورافع عمادها ، ومذل من نكب عن محبتها وصدف ، ومال عن قبلتها وانحرف ، وأوزعني الله أن أشكر هذه المنن التي يقصر عمر الزمان عن إحصائها عدداً ، وحصرها لساناً ويدا ، إنه فعال لما يشاء » .

ومع ما في الفقرة السابقة من تلميح إلى فضل أمراء آل بويه في الدفاع عن الخلافة فإنها تدل على ميل الصاحب - وهو وزيرهم القوي - إلى مصافاة وموادعة الخليفة في بغداد ، وهذا يدل على حنكة سياسية كبيرة عند الصاحب ، الذي كان يجتهد أن تبقى العلاقة بين البويهيين والخليفة هادئة وادعة بعيدة عن كل ما يكدر صفوها لأن إبقاء العلاقة بينهما على هذا الشكل - بكل تأكيد - يضيفي على حكمهم شرعية دينية تكسبهم قوة على قوة أمام شعوبهم في البلاد التي يحكمونها^(١٣١) كما توحى بذلك أيضاً الفقرة التالية من رسالة له في البشائر والفتوح ، كتبها الصاحب عندما هزم عضد الدولة قابوس بن وشمكير ، ومعه فخر الدولة ، يقول فيها :

« فالحمد لله معزز الحق وناصره ، ومذل الباطل وقاهره ، العدل ، فلا يلت أعمال المحسنين ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، حمداً يديم لمولانا أمير المؤمنين علاء الحكمة ومضاء الكلمة ، وأبهة الإمامة ، وعظمة الزعامة ، وإرث الرسالة ، وعز الحجة والدلالة ، فالدين ما لم يقرن بطاعته نفاق ، والدنيا ما لم تسكن مع جماعته شقاق ... »^(١٣٢) .

ويزيد الصاحب على ذلك بأن يشير - في بعض رسائله^(١٣٣) إلى أن المكاتبات كانت في بعض الأحيان تتم بينه وبين الخليفة مباشرة ، وذلك في أمر فخر الدولة^(١٣٤) ، إذ يقول :

« فكاتبني أمير المؤمنين على ما أشعت من الذكر ، واشبعت من النشر مستكفياً ، وأهاب بي لارتجاع الوديعه من جاحدها مستصفياً ، ورأى أن تكون جرجان وطبرستان مضافتين إلى ما نليه حاضر النظر ، ونديره تدبير العيان دون الخبر ... » .

وإشارة الصاحب تلك تحمل في طياتها دلالة على قدر كبير من الأهمية التاريخية وهي : أن خليفة بغداد^(١٣٥) كان يعرف ما يتمتع به الصاحب من مكانة كبيرة عند رؤوسه من الأمراء البويهيين ، وأن كلمته كانت نافذة في ملكهم^(١٣٦) وهو أي - الصاحب - بنفوذه الواسع هذا ، كان يستطيع أن يبقى الأمور بين الخلافة والأمراء البويهيين هادئة لا يشوبها شيء . وكأني به ، وهو يكتب للصاحب مباشرة ، كان يبحث عن أمان يقية شر الغوائل ، ويرد عنه أطماع الطامعين ، التي كان يتعرض لها بين الحين والآخر ، والتي أدت به في النهاية إلى الخلع^(١٣٧)

خاتمة

وبعد ، فهذا هو الصاحب بن عباد ، الوزير والقائد والكاتب ، الذي لاتزال رسائله توميء إلى منزلته كرجل دولة وككاتب ، وهي منزلة اعترف له بها حتى ثالبوه .

ورسائله هذه ، وإن كانت في أمور رسمية ، لدورانها حول موضوعات إدارية تنظيمية ، وعسكرية ، وسياسية ، فإنها قد قاومت الأيام ، واستمرت على مر السنين باقية ، تعلن عن شخصية كاتبها ، وتميزه بين أقرانه في فترته ، أسلوباً ومضموناً . وهي وإن كانت تعنى بمشاكل العصر وتشغل بمنازعته ، فهي لم تندثر ، ذلك أن الكتابات التي تعنى بمشاكل اليوم الحاضر وتشغل بالمنازعات اليومية يكون حظها في الأغلب حظ مقالات الصحف ، التي تصف الأزمات الوقتية ، ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثراً فنياً ، وإنما يقف فيها على المشتغلين بالتاريخ . فالصاحب بن عباد ارتقى برسائله إلى أعلى مستويات الكتابة الفنية في عصره وتأنق بها ، وأضاف إلى ذلك زخماً في موضوعاتها ، فكان من كل ذلك قوة أبقت عليها حياة عبر السنين والقرون ، لتكشف عن قدرة كبيرة عند صاحبها في السيطرة على اللغة ، ولتعكس مخزوناً هائلاً من المفردات اللغوية ، انسابت مطوعة لقلمة ، وانتظمت متسقة مع موضوعاته .

صحيح أن الصاحب كان من أعلام مدرسة التزيين البديعي والحلية البيانية ، ومن شغف بذلك شغفاً كبيراً ، إلا أن هذه الأمور ليست خاصة به ، ووقفنا عليه ، إنما هي طريقة النشر وأسلوبه في عصر الرجل ، وكان هو نتاج هذا العصر ، فكانت النتيجة أن الخصائص البيانية لذلك العصر وأساليبه التعبيرية قد تركت ملامحها الواضحة وبصماتها البارزة على نثر ابن عباد وطريقته في الكتابة ، كما أن تلمذته لابن العميد واختصاصه به قد أثر أثره العميق

النفاذ في نفس الصاحب ونفسه وفي انتهاج واقتفاء خطاه . وهو وإن زاد على ذلك فلائنه كان يحب أن يكون له السبق في كل شيء والريادة في كل شأن .

الهوامش

(١) انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ٥٥:٩ ، حيث يقول في حوادث عام ٣٧٧هـ « وفيها سار ابن عباد إلى طبرستان فأصلحها ، ونفى المتغلبين عنها ، وفتح عدة حصون ، منها : حصن قريم ، وعاد في سنته » .

(٢) نعني بها : دولة مؤيد الدولة ، وأخيه فخر الدولة ، ابني ركن الدولة .

(٣) انظر : ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ١٧١:٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢٢٧:٢ ؛ أبو نعيم الأصفهاني ، أخبار أصفهان ، ٢١٤:١ ؛ أبو الفداء ، تاريخ أبي الفداء ، ١٣٠:٢ ؛ ابن عماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ١١٥:٣ ؛ العباسي ، معاهد التنصيص ، ١٥٢:٢ .

(٤) طالقان : اسم لمدينتين : إحداهما بخراسان ، والأخرى من أعمال قزوین ، والصاحب من طالقان قزوین . انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢٣٠:٢ .

(٥) أصفهان : من بلاد فارس ، على مقربة من شَهْرستان . انظر : الحميري ، الروض المعطار ، ٤٢ ؛ اليعقوبي ، البلدان ، ٢٧٥ ؛ أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ٤٢٣ .

(٦) أبو شجاع الروذراوي ، ذيل تجارب الأمم ، ٢٦٢:٣ .

(٧) في لقبه (الصاحب) قولان :

الأول : أنه لُقِّبَ بالصاحب : لمصاحبه أبا الفضل بن العميد .

الثاني : أنه لُقِّبَ بالصاحب : لمصاحبه مؤيد الدولة ؛ لأنه « أنس منه كفايةً وشهامةً ؛ فلقبه بالصاحب كافي الكفاة » .

انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٧٣:٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢٢٠:٢ ؛ المنتظم لابن الجوزي ، حوادث ٣٨٥هـ .

(٨) كان الصاحب يقول : « وجميع ما أنفقته من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي وجدي » . معجم الأدباء ، ٢٤٤:٢ ؛ المنتظم ، ٣٧٦:١٤ ؛ حوادث عام ٣٨٥هـ .

(٩) ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٧١:٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢١٨:٢ .

(١٠) قال أبو حيان في أخلاق الوزراء : كان عباد يُلقَّب الأمين ، وكان ديناً خيراً ، مقدماً في صناعة الكتابة : « صنف في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجود فيه » .

انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٧١-١٧٢ .

(١١) وهو ابن أبي الفضل بن العميد ، قتله مؤيد الدولة عام ٣٦٦هـ .

انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٧٣:٦ ؛ و ٢٥٠:٦ .

(١٢) لما توفي مؤيد الدولة تشاورَ أكابر دولته فيمن يقوم مقامه ، فأشار الصاحب بإعادة فخر الدولة ، فأرسل إليه الصاحب ، واستخلفه ، وتسلم زمام الملك سنة ٣٧٣هـ .

- انظر : ياقوت ، معجم الأدياء ، ١٧٣: ٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٢٦: ٩ ، أبو شجاع الروذراوري ، ذيل تجارب الأسم ، ٩٣: ٣ ، أحداث سنة ٣٧٣ هـ ، تاريخ ابن خلدون ، ٥٤٩: ٤ .
- (١٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ١٢٠: ١١ .
- (١٤) ياقوت ، معجم الأدياء ، ٨٣: ٤ .
- (١٥) المصدر السابق ، ٢٧٦: ٦ .
- (١٦) المصدر السابق ، ٢٧٩: ٦ .
- (١٧) المصدر السابق ، ٢٧٩: ٦ .
- (١٨) آثاره المنشورة والمخطوطة والمفقودة .
- أولاً : آثاره ذات الطبيعة الدينية :
- ١ . التذكرة في الأصول الخمسة (منشور) .
 - ٢ . الإبانة عن مذاهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل (منشور) .
 - ٣ . رسالة في الهداية والضلالة (منشور) .
 - ٤ . القضاء والقدر (مفقود) .
 - ٥ . مختصر أسماء الله وصفاته (مفقود) .
 - ٦ . الإمامة (مخطوط) .
 - ٧ . نهج السبيل في الأصول (منشور) .
 - ٨ . أ - الزيدية .
- ب - كتاب الزيديين ، وربما كان هو نفسه كتاب « الزيدية » في رقم (٨) ، (أ) ومع هذا فالكتابان مفقودان .
- ج - نصرة المذاهب الزيدية (منشور) .
- ٩ . الرسالة في أحوال عبد العظيم الحسيني (منشور) .
- ثانياً : في التساريخ :
- ١٠ . عنوان المعارف وذكر الخلائف (منشور) .
 - ١١ . تاريخ الملوك واختلاف الدول (مفقود) .
 - ١٢ . كتاب الوزراء (مفقود) .
 - ١٣ . كتاب الأنواء (مفقود) .
- ثالثاً : اللغة والمعاجم والعروض :
- ١٤ . الفرق بين الضاد والطاء (منشور) .
 - ١٥ . المحيط باللغة (صدر منه جزءان) .
 - ١٦ . الإقناع في العروض وتخريج القوافي (منشور) .
 - ١٧ . جوهرة الجمهرة (مخطوط) .
 - ١٨ . الحجر (مخطوط) .
 - ١٩ . الوقف والابتداء (مخطوط) .
- رابعاً : في النقد الأدبي :

٢٠. الكشف عن مساوئ المتنبي (منشور).

٢١. الأمثال الشعرية من شعر المتنبي (منشور).

خامساً : الرسائل الفنية :

٢٢. الروزنامجة (منشور).

٢٣. الرسائل - رسائل الصاحب بن عباد (منشور).

٢٤. أخبار أبي العيناء (مفقود).

٢٥. الأعياد وفضائل النيروز (مفقود).

سادساً : الشعر :

٢٦. ديوان الصاحب بن عباد (منشور).

٢٧. السفينة (مفقود).

٢٨. التعليل (مفقود).

٢٩. الشواهد (مفقود).

٣٠. الفصول المهدّبة للعقول (مفقود).

(انظر : ياقوت ، معجم الأدياء ، ٦ : ٢٦٠) . وشارل بلاّ (Charles Pellat) ، في مقالته : الصاحب بن

عباد في : The Cambridge History of Arabic Literature-Abbasid Bell-Letters-1990 .

وانظر أيضاً : مقدمة ديوان الصاحب بن عباد ، تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين .

(١٩) اعتمدنا لهذه الدراسة « رسائل الصاحب بن عباد » ، تصحيح وتقديم عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف .

(٢٠) أشرنا سابقاً إلى أن أبا الفضل بن العميد جعل الصاحب في دواوينه ، وما زال يرقيه حتى اختاره وزيراً لمؤيد الدولة ، أثناء إمارته على إصبهان في عهد أبيه (انظر : ص ١ من هذه الورقة) ، ولما توفي ركن الدولة قصد أبو الفتح بن العميد ، ذو الكفائتين ، مؤيد الدولة وأزال الصاحب عن وزارته ، ولكن الصاحب سرعان ما انتصر عليه وعاد إلى الوزارة حتى توفي عام ٣٨٥هـ .

(٢١) حتى أبو حيان التوحّيدي يذكر ذلك في معرض ثلثه إياه ، فيقول : « وقد أفسده أيضاً ثقة صاحب مؤيد الدولة به ، وتعويله عليه » ؛ انظر : الإمتاع والمؤانسة ، ١ : ٦٠ .

(٢٢) ياقوت ، معجم الأدياء ، ٦ : ٢٤٤ .

(٢٣) الرسائل الديوانية ، هي لون من الرسائل كان يصدر عادة عن ديوان الرسائل إلى الولاة في الأمصار والأقاليم . والجدير بالذكر هنا ، أن هذه الرسائل كانت مقيدة بالغرض الأساسي والتقاليد الرسمية ، لا يستطيع كاتبها أن يخرج عن الموضوع الأصيل والتقاليد المعروفة ، أطرب الكتاب في هذه أو أوجزوا ، وذلك حسب المقام ؛ محمد نبيه حجاب ، بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ٩٥ .

ولقد تأصل هذا اللون من الكتابة وعم ، وأصبح له كُتّاب ارتبطت أسماءهم به ارتباطاً وثيقاً ، وضعوا له مقوماته الفنية ، وسماته الأسلوبية ، من هؤلاء : الصاحب بن عباد الذي حذا حذو أستاذه ابن العميد في طريقته .

أما قولنا « في معظمهما » ، فذلك لأن هناك رسائل غير رسمية تخللت هذه الرسائل ، - وبخاصة في الأقسام الأخيرة - من المجاملات والعتاب والتهنئة إلى غير ذلك من المواضيع الشخصية .

(٢٤) انظر : عبد الوهاب عزام و شوقي ضيف ، رسائل المصاحب ، المقدمة ، ص «ل» .

(٢٥) إحسان عباس ، عبد الحميد الكاتب ، ص ١٥٣ .

(٢٦) يتحدث المصاحب بن عباد في هذه الرسالة عن استنجد إبراهيم بن المرزبان بركن الدولة على عمته وهشمدان ، وقد اغتصب منه ومن أخوته مملكت أذربيجان بعد وفاة أبيهم ، بينما تذكر كتب التاريخ أن ركن الدولة أغاث إبراهيم لأسباب شخصية ، نجد المصاحب يذكر أنه أغاثه لأسباب سياسية . انظر : رسائل المصاحب ، ص ١٥ ، وانظر هذا الحدث في : مسكوية ، تجارب الأمم ، ٢ : ٢١٩ ، حوادث سنة ٣٥٥ هـ ؛ وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ٨ : ٤٢١ .

(٢٧) إحسان عباس ، عبد الحميد الكاتب ، ص ١٥٤ .

(٢٨) أسلوب المصاحب هذا ليس بدعة ابتدعتها ، بل هو ظاهرة عامة لأدب الناس في القرن الرابع الهجري ، ونحن إذا رجعنا إلى الخصائص الأدبية للقرن الرابع الهجري لنعرف مقدار تأثيرها في تفكير ابن عباد ، ومقدار تأثره بها . نجد أن النثر والشعر قد خضعا - كما هو طبيعي لهما - لسُنن الحضارة الترف ، والاختلاط بالأمم الأخرى غير العربية ، وبفلسفاتها وآرائها وآدابها ، فكان لها من مجموع هذه السنن مذهب خاص ، طبع هذا القرن بطابعة وهو نتيجة تطور القرون بما حملت من عناصر التجديد ، والتحضر والتدرج المطرد .

ديوان المصاحب بن عباد ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، المقدمة ، ص ١٠ .

(٢٩) عمل ابن عباد وزيراً لمؤيد الدولة بعد مقتل أبي الفتح بن العميد ، ومن ثم لفخر الدولة . انظر ص ١٩٢ من هذه الورقة .

(٣٠) بقي وزيراً حتى وفاته عام ٣٨٥ هـ .

(٣١) « فتح المصاحب بن عباد خمسين قلعة إلى فخر الدولة ، لم يجتمع عشر منها لأبيه ولا لأخيه » . ياقوت ، معجم الأدباء ، ٦ : ٢٥١ ؛ وابن الجوزي ، المنتظم ، ٤ : ٣٧٥ ، حوادث عام ٣٨٥ هـ .

(٣٢) بدوي طبانة ، المصاحب بن عباد ، ص ٩٧ .

(٣٣) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٦ : ١٧٦ .

(٣٤) من هؤلاء : الثعالبي ، الذي يقول : « إن المصاحب قد بلغ من البلاغة ما يُعَدُّ في السَّحر ، ويكاد يَدْخُلُ حَدَّ الإعجاز ، وسارَ كلامه مسير الشمس ، ونُظِمَ ناحيتي الشرق والغرب » ؛ الثعالبي ، تيممة الدهر ، ٣ : ١٦٩ . وكذلك ابن النديم الذين يصرح بأن المصاحب : « أوحَدُ زمانه ، وفريدُ عصره في البلاغة الفصاحة والشعر » ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٩٤ .

(٣٥) ألَّف التوحيدي كتاباً بعنوان « مثالب الوزيرين » وهما : ابن العميد والمصاحب بن عباد .

(٣٦) وتحامل التوحيدي على المصاحب واضح ظاهر ، ولَّده غيظه منه ، كما يقول هو نفسه : « إني رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه في معاملي ، وشديد الغيظ لحرمانني ، وإن وصفته أربيت متصفاً ، وانتصفت منه مُسرفاً ، فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب ، وعارياً منهما جملة ، كان الوصفُ أصدق ، والصدقُ به أخلق » . التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ١ : ٥٣-٥٤ .

ومع تحامل التوحيدي عليه ، وبخاصة في مثالب الوزيرين - انظر : معجم الأباء - فإنه يعترف أن المصاحب « كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نَتَفَّ من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن

بطرف». انظر: التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ٥٤:١؛ ياقوت، معجم الأدباء، ١٧٤:٦.
وقال عن أبي العميد والصاحب بن عباد عندما قاربَ على الفراغ من كتابه: في أخلاق الوزيرين - مثالب الوزيرين - : «ولو لا أن هذين الرجلين كانا كبيرَي زمانهما، وإليهما انتهت الأمور، وكليةما طلعت شمسُ الفضل... لكنك لا أتسكع في حديثها هذا التسكع... ولو أردت مع هذا كله أن تحب لهما ثالثاً في جميع من كُتِبَ للجبل والديلم إلى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب، لم تحب». ياقوت، معجم الأدباء، ٢٣٢:٦.

وقال بعد أن فرغ من الاعتذار عن التصدي لثلب الصاحب: «فأول ما أذكرُ من ذلك ما أدل به على سعة كلامه، وفصاحة لسانه، وقوة جأشه، وشدة منته». ياقوت، معجم الأبا، ١٨٧:٦.
(٣٧) الثعالبي، يتيمة الدهر، ١٩٠:٣؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان، ٢:٢١٦.

ويقول الرستمي في الصاحب:

ورث الوزارة كابراً عن كابر
يروى عن العباس عبّادُ وزا

موصولة الإسناد بالإسناد
رثه وإسماعيل بن عباد

ياقوت، معجم الأدباء، ٢٥٦-٢٥٧.

(٣٨) لقد كان يعصّد منزلة الصاحب الرفيعة خلق رفيع أيضاً: فقد حدّث الرواة أن رجلاً من ينطوي له على مَوْجِدة دخل داره في غمار الناس، فكتب له بعض أصحابه بذلك، فوقع: «دارنا هذه خان لمن وقى وخان». ياقوت، معجم الأدباء، ٢٧٥:٦.

«وقالوا: إنه استدعى يوماً شراب السكر، فجيء بقدر منه، فلما أراد شربه قال بعض خواصه: لا تشربه، فإنه مسموم. فقال له: وما الشاهد على صحّة ذلك؟ قال: أن نجربّه على من أعطاكه قال: لا استجيز ذلك ولا أستحلّه، قال: فجربّه على دجاجة. قال: إن التمثيل بالحيوان لا يجوز. وأمرَ قَصَبَ ما في القدح، وقال للغلام: انصرف عني ولا تدخل داري بعدها، وأقرّ رزقه عليه». انظر: ياقوت، معجم الأدباء، ١٨٥:٦؛ وابن الجوزي، المنتظم، ١٤:٣٧٦-٣٧٧، حوادث عام ٥٨٥هـ.

(٣٩) بدوي طبانة، الصاحب بن عباد، ص ٩٧.

(٤٠) كان الصاحب يقول: وجميع ما أنفقته من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي وجدي، ياقوت، معجم الأدباء، ٢:٢٤٤.

(٤١) وهو ما فرض على الرعية - ظلماً - من أموال زيادة على الخراج والأعشار.

الإرصاد، انظر: لسان العرب مادة رَصَدَ.

(٤٢) وهو الفتح الذي تمكن فيه جيش عضد الدولة من هزيمة قابوس بن وشمكير، وفخر الدولة، الذي لجأ إلى قابوس ليظاهاه على أخويه: عضد الدولة ومؤيد الدولة. انظر ص ٣٠ من هذه الورقة؛ وياقوت، معجم الأدباء، ٢٥٢:٦؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩:١٠.

(٤٣) رسائل الصاحب، ص ٣٠.

(٤٤) تَهَوَّكْتُ: تردّت.

(٤٥) رسائل الصاحب، ص ٣١.

(٤٦) الصقع: المصر.

- (٤٧) رسائل الصاحب بن عباد ، ص ٣٢ .
- (٤٨) رُقبة : رقيب
- (٤٩) نُقبة : من نقب أي : استخرج .
- (٥٠) رسائل الصاحب ، ص ٣٢ .
- (٥١) جار : أجرة جارية .
- (٥٢) انظر : أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية ، ص ٢٢ .
- (٥٣) قصبة الدينور : من مدن بلاد الجبل أو الجبال ، وتقع قرب همدان ، تبعد إلى الشمال . أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٤١٤ .
- (٥٤) انظر : خصائص عهود الأمان عند الصاحب ، ص ٣٤ من هذه الورقة .
- (٥٥) ليس غريباً على الصاحب أن يرسل في بعض رسائله ، فقد تعود الكتابة كذلك في غير هذه الرسائل ، انظر إليه في كتابة : « نصره مذهب الزيدية » (تحقيق ناجي حسن ، بغداد ، ١٩٧٧) كيف يتعامل مع قضايا الكتاب بأسلوب سار فيه على الطبع والسليقة ، مما يثبت قدرته على الكتابة بأساليب شتى حسبما تقتضيه الظروف والأحوال .
- (٥٦) رسائل الصاحب ، ص ص ٦٠-٦١ .
- (٥٧) رسائل الصاحب ، ص ص ٥٤-٥٥ .
- (٥٨) الرشانات : الجبال ، انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة رشن .
- (٥٩) الجويذين جمع جويذ ، وهو القيم على النهر .
- (٦٠) يبدو أن الارتشاء كان منتشرًا بين القائمين على مرافق الدولة ، من هنا جاءت إجراءات الصاحب هذه محاربة لهذه الظاهرة ، وردعاً للمرتشين . انظر الصفحة السابقة من هذه الورقة .
- (٦١) سكره : سكر النهر : سدّ فاه .
- (٦٢) رسائل الصاحب ، ص ٥٥ .
- (٦٣) زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، ٣٠٦:٢-٣٠٧ .
- (٦٤) محمد كرد علي ، أمراء البيان ، ص ٥٠٨ .
- (٦٥) رسائل الصاحب ، ص ٥٤ .
- (٦٦) الحسبة : هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر إذا بان فعله ، وهي من الولايات الدينية التي تمنع الضرر الاجتماعي بصورة مباشرة . انظر : الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ٥ .
- (٦٧) انظر إليه كيف استعمل كلمة (الزجر) بدلاً من النهي ، إذا أدخل في هذه المهمة القصاص ، في حين أن مهامها الأصلية - كما اعتيد عليها - تنظيم الأمور وتصحيح الأوضاع .
- (٦٨) رسائل الصاحب ، ص ص ٣٩-٤٠ .
- (٦٩) العهد : هو ما كان يكتبه الوزير عن الخليفة أو السلطان في إسناد بعض أعمال الدولة إلى بعض الرجال ،

الذين اجتمعت فيهم الصفات التي ترشحهم لولاية تلك الأعمال . انظر : بدوي طبانة ، الصاحب بن عباد ، ص ١٩٦ .

(٧٠) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ٢٠٠ .

(٧١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر ، ص ١٤٧ .

(٧٢) رسائل الصاحب ، ص ص ٣٩-٤١ .

(٧٣) البذرة : التوزيع والتفريق . بذرقها ، أي : وزعها وفرقها وأوصلها إلى مكانها . ابن زهر ، التيسير في مداواة ، ص ١٠٨ ؛ ابن منظور ، اللسان ، مادة بذرق .

(٧٤) رسائل الصاحب ، ص ٦٦ .

(٧٥) كان العرب يدفعون الأعطيات (الرواتب) على الشهر القمري ، في حين كان الخراج والعشر والزكاة نجبي على الشهر الشمسي (النيروز) ، فيترتب على ذلك فروقات ما بين الدفع : كل ٣٢ سنة أخذ يقابلها ٣٣ سنة دفع ، فتصاب الدولة بأزمة اقتصادية يترتب عليها ثورات وانتفاضات ؛ لذلك ، أسقطت الفروق بين الشهور الخراجية والهلالية تحباً لذلك ، وتوخياً للعدل . ابن العبري ، غريغورس ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٧٠ .

(٧٦) رسائل الصاحب ، ص ٦٤ .

يبدو واضحاً أن البويهيين - وكان الصاحب وزيراً لهم - كانوا لا يزالون يمثلون لبعض أوامر خليفة في بغداد ، بخاصة فيما يتعلق بالأمور الإدارية والتنظيمية ، وهذا أيضاً صناء وموادعة . انظر ص ٣٨ من هذه الورقة .

(٧٧) وهذا من القواعد المقررة التي أصبحت للإنشاء البياني مع الزمان . انظر : أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية ، ص ٢٢ .

(٧٨) رسائل الصاحب ، ص ٦٤ .

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٨٠) المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٨١) يبدو أن الديللم كانوا قوماً ذوي جشع وحسد ، وقد أورد مسكويه في « تجارب الأمم » أنه سمع ابن العميد يشرح لابنه أبي الفتح صورة الديللم في الخسد والجشع . (مسكويه ، تجارب الأمم ، ٢ : ٢٧٢) كما وصّاه بمداواة الديللم وإزاحة عدلهم عند أوقات استحقاقاتهم لنشأ يخرقوا هيبتهم بالشغب وضلب الفتن . (مسكويه ، تجارب الأمم ، ٢ : ٢٣٤) وعلى هذا ، فلا بد أن يكون الصاحب قد حفظ عن أستاذه ابن العميد هذا الأمر ، فتتنبك خطاه فيه ، فأمر بمعاملتهم باحسنى وأخذل .

الديللم : بلاد واسعة وهو اسم لإقليم في الجبال خلف طبرستان ، يحدها من الغرب أذربيجان ، ومن الجنوب قزوین وأذربيجان . ومن الشرق الري وطبرستان ، ومن الشمال بحر الخزر ، يحادها بلاد الجبل . انظر : ياقوت ، المشترك وصفًا ، ص ١٩٢ ؛ وأبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٤٢٦ .

(٨٢) رسائل الصاحب ، ص ٧٧ .

(٨٣) هم الأشراف من نسل علي بن أبي طالب .

(٨٤) للباحثين آراء شتى في عقيدة الصاحب ومذهبه : ابن طيء يقول : كان إمامي الرأي ، وأخطأ من زعم أنه كان معتزلياً . (العسقلاني ، لسان الميزان ، ٤١٦: ١) . وجعله البعض من الدارسين شافعيًا شيعيًا ، حين قالوا : بأنه كان - مع اعتزاله - شافعي المذهب ، شيعي النحلة (العسقلاني ، لسان الميزان ، ٤١٣: ١) . ويذكر أبو حيان أن الصاحب كان يتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية (ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٧٥: ٦) . وعلى كل حال فللصاحب كتاب « نصرة مذاهب الزيدية » ، وهذا يقطع الشك باليقين (تحقيق ناجي حسن) .

(٨٥) رسائل الصاحب ، ص ٩٢ .

(٨٦) تصرّح رسائل الصاحب - ومنها هذه الرسالة - بأن العلوية كانوا يخاطبون آنذاك بالشرفاء والأشراف .

(٨٧) رسائل الصاحب ، ص ٩١ .

(٨٨) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٨٩) كان ابن عباد يدين بقولة المعتزلة ، ويذهب مذهبهم في القول بخلق القرآن ، والعدل والتوحيد ، وبما لا شك فيه أن انتسابه إلى المعتزلة كان موروثاً ، وأنه أخذ تعاليمهم ، وعرف مبادئهم عن أبيه ، الذي كان معتزلياً . والذي صنّف كتاباً في أحكام القرآن ، نصر فيه الاعتزال وجوداً فيه . (انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، ٢١٣: ٦ ؛ والعسقلاني ، لسان الميزان ، ٤١٦: ١) .

ونحن نجد في رسائل الصاحب ترعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه . (انظر : رسائل الصاحب ، الرسالة التاسعة من الباب العاشر ، ١٤٢-١٤٣ ؛ وانظر : الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ١٩٧: ٣) .

ونجد هذا أيضاً في شعره ، الذي ضمّنه إشارات إلى مسائل من أقوالهم التي يعتقدها ، مثل :

لو شقّ قلبي يرى وسطه سطران قد خُطَّ بلا كاتب
العدل والتوحيد في جانب وحُب أهل البيت في جانب

(الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ٢٦٤: ٣) .

ومع هذا ، فإنه لم يعرف له في علم الكلام قول انفراد فيه ، وإنما كان يردد عموم أصول المعتزلة وعقائد الزيدية . انظر : أحمد محمود صبحي ، الزيدية ، ص ٢٠٧ . وانظر : التوحيد ، الإمتاع والمؤانسة ، ٥٤: ١ .

(٩٠) القاضي عبد الجبار بن أحمد ، قاض معتزلي مشهور ، وُلِّي القضاء بالري وبما تحت حكم مؤيد الدولة من البلاد عام ٣٦٧ هـ . ولما توفي الصاحب ، قال عبد الجبار : لا أرى الترحم عليه لأنه مات من غير توبة ظهرت ، فنُسب لذلك عبد الجبار إلى قلة الوفاء . ت ٤١٥ هـ .

(٩١) رسائل الصاحب ، ص ص ٣٤-٣٥ .

(٩٢) بدوي طبانة ، الصاحب بن عباد ، ص ١٩٦ .

(٩٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣٧٥: ٤ ، أحداث ٣٨٥ هـ .

(٩٤) سلالر أو سالار : معناها القائد ، رتبة من رُتب الجند عند الفرس قبل الإسلام ، يأتي تحت المرزبان في التدرج العسكري . ظلت معروفة في الإسلام ، وخاصة في الدولة الغزنوية . انظر : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٥٨٧: ٢ .

(٩٥) رسائل الصاحب ، ص ٩٨ .

(٩٦) زنجبان : بلد من نواحي الجبال بن آذربيجان وبينها ، قريبة من البحر وقزوين . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ١٥٢:٣ .

(٩٧) يعني : عضد الدولة .

(٩٨) يعني : مؤيد الدولة .

(٩٩) يعني : عضد الدولة ومؤيد الدولة .

(١٠٠) زكي مبارك ، النشر الفني في القرن الرابع الهجري ، ٢٤٨:٢ .

(١٠١) انظر أحداث هذا الفتح في : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ١٠:٩ ، أبو شجاع الروذراوي ، ذيل تجارب الأمم ، أحداث عامي ٣٧١ و ٣٧٢ هـ .

كتب الصاحب في هذا الفتح رسالة أخرى وردت في باب البشائر والفتوح ، عندما طلب عضد الدولة من الخليفة الطائع له عزل فخر الدولة عن أعمال طبرستان وجرجان ، وضمهما إلى مؤيد الدولة ، فأجابه إلى ذلك (انظر : رسائل الصاحب ، ص ٣-٨) .

(١٠٢) قابوس بن وشمكير : ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ هـ ، ولقبه الخليفة الطائع « شمس المعالي » . وعندما نشأت الفتنة بين عضد الدولة وأخيه فخر الدولة ، لجأ فخر الدولة إلى قابوس ، وأحفظ ذلك عضد الدولة ، فأغار على مملكته وهزمه ، ولكنه استطاع أن يسترجع ملكه عام ٣٨٧ هـ . انظر : ياقوت ، معجم الأدياء ، ١٦: ٢٢٠ .

كان قابوس من الملوك الأدياء ، بكى ملوكه وخطه وجده شعراً ، فقال :

لئن زالَ أملاكي وفساتِ ذخائري	وأصبحَ جمعي في ضَمانِ التَّفَرُّقِ
فقد بقيتُ لي همّةٌ ما وراءها	منال لراج أو بلوغُ لمرَّتقي
ولي نفسٌ حرٌّ تأنف الضَّيمَ مركباً	وتكرهُ وردَ المنهلِ المَرتسِقِ
فإن تلفتَ نفسي فلنله دُرّها	وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

زكي مبارك ، النشر الفني في القرن الرابع الهجري ، ٢٣٩:٢ . انظر ترجمته في : الثعالبي ، بتيمة الدهر ، ٥٦: ٥٩ ، ١٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

(١٠٣) مسكويه ، تجارب الأمم ، أحداث ٣٣٥ هـ ، وابن الأثير ، الكامل ، ٥١١:٨ .

(١٠٤) رسائل الصاحب ، ص ٢٤ .

(١٠٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ١٠٥:٩ .

(١٠٦) إمهاء : من أمهى الفرس ، إذا أرخي له من عنانه .

(١٠٧) رسائل الصاحب بن عباد ، ص ٢٧ .

(١٠٨) قصرها : القصر هو أصل العنق .

(١٠٩) الزوبينات الزوين : فارسية ، وهي حربة قصيرة .

(١١٠) رسائل الصاحب ، ص ٢٨ .

(١١١) لا ننسى أن الكتب كانت تصدر عنه باسم عضد الدولة أحياناً ، وباسم مؤيد الدولة في كل الأحيان ، وفي كل الشؤون . انظر ص ١٩٢ من هذه الورقة .

في رسالة الصاحب الثانية في الموضوع ذاته ، يظهر طول نفس الأمير ووزيره - الصاحب - في التعامل مع هذه الأحداث بشكل واضح ، إذ يقول : « ومولانا الملك السيد في كل ذلك يولييه صفحة صفحة ، ويولييه العفو من عفوه ، فيتجاوز عنه حلمًا ، ولا يتجاوز به التنبيه كظمًا . ونسلُّك في هذا المذهب ونعتمد ، ونحذره في أثناء الإغضاء ونرشده ، رجاء أن يتزع أو يتزع ... إلى أن عاد بدو شره فادحًا ... فاستبد استبداد المطاع لا الطائع ... وتلقّت شمس المعالي وكان كُسوفها ... » (رسائل الصاحب ، ص ٤٤) .

(١١٢) رسائل الصاحب ، ص ٢٦ .

(١١٣) رسائل الصاحب ، ص ٢٨ .

(١١٤) لون من ألوان الكتابة (الموضوعية) يقرّر فيه الكاتب أكبر قدر من المعلومات الصحيحة والحقائق الموضوعية حول أمر من الأمور . انظر : أحمد شوقي رضوان ، التحرير العربي ، ص ١٩٦ .

(١١٥) أنيس المقدسي ، تطوّر الأساليب النثرية ، ص ٢١٨ .

(١١٦) رسائل الصاحب ، ص ٢٩ .

(١١٧) نفس المصدر ، ص ٢٩ .

(١١٨) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(١١٩) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر ، ص ١٤٢ .

(١٢٠) نفس المصدر ، ص ١٤٧ .

(١٢١) زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، ص ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(١٢٢) رسائل الصاحب بن عباد ، ص ص ٦٢-٦٣ .

(١٢٣) فتح الصاحب بن عباد خمسين قلعة إلى فخر الدولة ، « لم يجتمع عشر منها لأبيه ولا لأخيه » انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، ٦: ٢٥١ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤: ٣٧٥ ، حوادث سنة ٣٨٥ هـ .

(١٢٤) رسائل الصاحب ، ص ٦٠ .

(١٢٥) انظر : زكي مبارك ، النثر الفني ، ٢: ٢٤٦ ، في معرض تعليقه على الرسائل الديوانية لابن العميد .

(١٢٦) رسائل الصاحب بن عباد ، ص ٨٨ .

(١٢٧) كان من الممكن إدراج هذه الخطابات ضمن كتب الأمان السابقة ، لكننا عَزَفْنَا عن ذلك بسبب اختلاف هذه الخطابات عن تلك ؛ لأنها أكثر إسهابًا وتفصيلًا في سبب المكاتب ، وأكثر احتفالًا بالبديع والترصيع والتسجيع من تلك بدرجة كبيرة ، تصل في بعضها إلى التعقيد والإغراب .

(١٢٨) رسائل الصاحب ، ص ص ١٠١-١٠٢ .

(١٢٩) نفس المصدر ، ص ١٣ .

(١٣٠) مقدمة هذا الخطاب طويلة ، تأتق فيها الصاحب ، وأغرب في سجعه وازدواجه ، وأطال في تحميد عضد الدولة ، ومؤيد الدولة (البويهيين) ، كما أسهب في تحميد أمير المؤمنين (الطائع لله) ، كما عمد إلى توضيح أسباب حرب عضد الدولة مع ابن حمدان ، ومع ذلك لم يخل الصاحب بما ألزم نفسه به من التأتق البديعي والحلية اللفظية التي تصل عنده في هذا الخطاب حد المبالغة والتعقيد ، وبخاصة في السجع

والجناس . ومن خصائصه البارزة التي تظهر بقوة في هذه المقدمة : الإكثار من حشد الجمل المعترضة ، والعبارات الفاصلة بين المسند والمُسند إليه ، وإقحامها في قلب الجملة الواحدة (انظر خصائص الصاحب بن عباد في : الفصول الأدبية ، تحقيق محمد حسين آل ياسين - المقدمة) ، كما أكثر الصاحب - في مواقع مختلفة من الخطاب - من استخدام التشبيهات والاستعارات ؛ فكأنني به هنا كان ينزع إلى أن يشق على نفسه ، حتى يُظهر قدرته ومهارته ، ومن هنا يأتي استخدامه للغريب وإكثاره من الاعتراض الطويل بين المعطوفات (رسائل الصاحب ، ص «س» ، المقدمة) يقول في مقدمة هذا الخطاب :

« كتابي ، وإذا عُدَّت النعم لتحصل مواقعها من العظم ، وتميز مراتبها في المنح والقسم ، ويقابل كل منها بما يطاق شكراً يفاض فيه ، ونشراً يشاد بمعالیه كان أجدرها بالتعظيم والإجلال ، وأظهرها في تحقيق الظنون والآمال ، وأحقها بأن يتصل له الشكر فتعم جوادته ، ويدوم عنها الحمد فلا تنقطع موادّه ، نعمة الله عند أمير المؤمنين ، فإنه - عزّ اسمه - جعل رايته العليا ، وآيته الكبرى ، ونزّه ما أولاه عن أن تسعى إليه الأوهام فتدركه ، وأجلّ ما حياه أن تعلوه الأمانی فتتملكه ، ونصب الأيام تواريخ لما يعرّ من نصره ، والساعات مواقع لما يظهر من أمره ... » إلى أن يقول : « هذا ، وقد عرف الله الكافة ممن نهض به فحصبه وتنتيره ... أنه - تبارك اسمه - سهل طرائق ذلك ومجاريه ... بمن انتضى دون الخلافة سيفه ، فصدق رجاءه ومضاؤه ، وجردّ عن الأمانة عزمه فننفذ قضاؤه . ووقف على حماية الدين خواطره فساعده الأقدار ... وهو مولانا الملك (يريد عضد الدولة) فما يقصد وعراً إلا أرض سهلاً ، ولا يحكم عقداً إلا استعاض حلاً ... » (رسائل الصاحب ، ص ١١) .

(١٣١) يظهر هذا - أيضاً - عندما سأل عضد الدولة الطائع لله ، حين ناصر قابوس فخر الدولة ضد عضد الدولة ، أن يعقد لمؤيد الدولة على أعمال جرجان وطبرستان ، إذ كان بإمكان عضد الدولة أن يولي هذه الأمصار أخاه دون الرجوع إلى الخليفة ، ولكنها الشرعية التي أرادها لأخيه ؛ ليكون حاكماً تقبل به شعوب تلك الأمصار .

(١٣٢) رسائل الصاحب ، ص ٨ .

(١٣٣) نفس المصدر ، ص ٥ .

(١٣٤) انظر حاشية رقم (١٣١) أعلاه .

(١٣٥) وهو : الطائع لله .

(١٣٦) انظر ص ١٩٣ من هذه الورقة .

(١٣٧) كثر أحدهم عند بهاء الدولة مال الطائع لله وذخائره ، وأطمعه فيها ، فقبل منه (أي بهاء الدين) وقبض على الطائع لله ، وكتب عليه كتاباً بالخلع ، وتسليم الأمر إلى القادر بالله ، وشهد الشهود فيه عليه ، وكان ذلك عام ٣٨١ هـ . انظر هذه الأحداث في : تاريخ ابن خلدون ، ٥٥٦: ٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٧٩: ٩ . وكان الخليفة المطيع لله قد خلع عام ٣٥٥ هـ ، وأجبر على تسليم الخلافة إلى ولده الطائع . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ٣٦٨: ٨ .

المراجع

أولاً : المراجع العربية

ابن الأثير ، أحمد بن الحسن بن علي مكرم ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ .

- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي ، لسان الميزان ، حيدر آباد الدكن ، مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٣٣٠ هـ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان ، عناية أحمد فريد الرفاعي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، د . ت .
- ابن زهر ، عبد الملك بن زهر ، التيسير في المداواة والتدبير ، تحقيق : ميشيل الخوري ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٣ .
- ابن العبري ، غريغورس ، مختصر تاريخ الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ابن عماد الحنبلي ، أبو فلاح عبد الحي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين ، مسالك الإبرار في ممالك الأمصار ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، فرانكفورت ، ١٩٨٨ .
- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٥ .
- ابن النديم محمد بن إسحاق ، الفهرست ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .
- أبو حيان التوحيدي ، علي بن محمد ، الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين ، مكتبة دار الحياة ، بيروت ، د . ت .
- أبو شجاع الروذراوي ، محمد بن الحسين ، ذيل تجارب الأمم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩١٦ .
- أبو الفداء ، إسماعيل بن علي بن محمد ، الملك الصالح ، تاريخ أبي الفداء ، اعتناء رايסקه وإدler ، دار المعرفة بيروت ، صورة بالأوفست عن طبعة كوبنهاجن ، د . ت .
- _____ ، تقويم البلدان ، تحقيق رينود ودي سلان ، دار الطباعة السلطانية في باريس ، ١٨٤٠ .
- أبو نعيم الأصفهاني ، أحمد بن عبد الله ، أخبار أصفهان ، مطبعة بريل ، لندن ، ١٩٣١-١٩٣٤ .
- أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهل ، كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- إحسان عباس ، عبد الحميد الكاتب ، وما تبقى من رسائله ورسائل سالك مولى أبي العلاء ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٨٨ .
- أحمد شوقي رضوان ، التحرير العربي ، عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٩٨٤ .
- أحمد محمود صبحي ، الزيدية ، الزهراء للإعلام ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- بدوي طبانة ، الصاحب بن عباد ، أعلام العرب ، رقم ٢٧ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والوثائق والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦.

حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦.

الخميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي، الروض المعطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤.

الزركلي، خير الدين محمود، الاعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠.

زكي مبارك، النشر الفني في القرن الرابع الهجري، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٣.

شارل بيللا (Charles Pellat)، الصاحب بن عباد في:

- The Encyclopaedia of Islam, Vol. III, p. 677.

- The Cambridge History of Arabic Literature, Abbasid Bell-letters, Cambridge University Press, Cambridge, 1966.

شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النشر، مكتبة الأندلس، بيروت، ١٩٥٦.

الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز الصيرفي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

الصاحب بن عباد، ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار القلم، بيروت، ١٩٧٤.

_____، رسائل الصاحب بن عباد، صححها وقدم لها عبد الوهاب عزام و شوقي ضيف، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٦هـ.

_____، فصول أدبية، تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢.

_____، نصرة مذاهب الزيدية، تحقيق الشيخ ناجي حسن، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٧.

العباسي، عبد الرحيم بن أحمد، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٤٧.

محمد كرد علي، أمراء البيان، دار الأمانة، بيروت، ١٩٦٩.

محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٦٥.

مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تجارب الأمم، شركة التمدن الصناعية، القاهرة، ١٩١٥.

ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله، المشترك لفظاً، والمختلف صقماً، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣.

_____، معجم الأدباء، عناية أحمد فريد رفاعي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦-١٩٣٨.

_____، معجم البلدان، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٥٧.

اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر، البلدان، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٤.

Clarity and Peaceableness in the Belles-Letters of Al-Sahib Ibn Abbad

MAY AHMAD YOUSEF

*Dept. of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities,
Yarmouk University, Irbid*

ABSTRACT. The administrative Letters known as *al-Rasa'il al-Diwaniyya*, written by the well-known Bowayhi vizier Al-Sahib Ibn Abbad (D 385 H.) reflects significant varieties in:

- a) subject matters
- b) tone
- c) style

This paper discusses these issues in the letters thoroughly and carefully, and concludes that Ibn 'Abbad had accomplished unique characteristics as a politician and as a man of letters.